مرافعة البلبل في القفص

رواية يوسف القعيد

دار الشروق

مُرافعة البُلبُل في القفص

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس ٠ 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

١ ـ هكذا تبدأ القصص

إمــرأة

وقاض

ومحام

وكاتب

وضابط

ومؤلف

إمرأة طـويلة ، تقف في القفص ، تتشعلـق في الحديد بيديها ، وقـاض يجلس على الكرسى العالى . فوق رأسه ميـزان ، من المفروض ألا يميل ناحية الشمال ، وألايميـل نـاحية اليمين . وامـرأة أخـرى مصلـوبة على الحائط . وإن كـانـت معصومة العينين .

وكاتب لم يعد أمامه سوى الجلوس في مقاعد المتفرجين . تتأرجح أحلامة بين قفص المرأة الحديـدى ، وقلم القاضـى الذي يخط به على الـورق . يلوث بحبره بياض الصفحات ، فيحدد مصائر خلق الله .

والمرأة الأخرى المصلـوبة على الجدار ، الواقـف خلف القاضي والـذي يضع نهايـة لعالم المحكمـة ، المرأة المصلوبـة ، تتكسر نظراتها، تحت العصـابة التـي تغطي عينيها . تعلو رأس القاضي . تتسع القـاعة أمام الكاتب ، تمتلئ بخلق الله . لكن الامكانية الوحيدة المتاحة أمامه هي الجلوس في مقاعد المتفرجين .

إمــــرأة ، وقــاض ، ومحـــام

وكـاتب ، وضـابــط ، ومؤلــف .

هم كل من يسكنون هذه القصة .

والقصة عنوانها مكون من ثلاث كلمات وحرف« مرافعة البلبل في القفص» والقفص من السهل التعرف عليه . ما إن تدخل من باب القاعة ، حتى تذهب عيناك إليه . يقف فيه من ينتظرون لحظة النطق بالأحكام ، ولم يخبرنا أحد ـ حتى الآن ـ لماذا تندفع فى حبه القلب منا ، حالة من التعاطف مع من يجلس فيه، حتى لو كان مجرمًا .

أنت تقرأ في هذه اللحظات ما اتفقنا منذ البدء على أنه قصة ، ما من قصة في هذا العالم ، ولدت بصورة شيطانية . وان كان لكل قصة مؤلف ، فإن الأمر يختلف هذه المرة .

أحد أبطالها كاتب . لنكن أكثر صدقًا ، ولنغلق كافة الأبواب والنوافذ التي يمكن أن يتسلل منها الكذب الجميل ، ولكنتب أن أحد الذين ليسوا أبطالاً في هذه القصة كاتب .

وهناك من قبله المؤلف ، الذي كتب القصة ، أو قصة القصة . إسمه طويل : محمد يوسف يوسف القعيد [بضمه على القاف وشدة مكسورة على الياء] ، ومحمد إسمه ، ويوسف الأول إسم والده ، ويوسف الثاني إسم جده ، والقعيد لقبه .

وأصل العائلة يعود إلى بطن من قبيلة القرعان ، التي هاجرت من شبه جزيرة العرب ، مع عمرو بن العاص ، خلال فتح العرب لمصر .

إستقر المهاجرون في جرجا بصعيد مصر ، وما زال يسكنها أربعون الفا منهم حتى لحظة كتابة هذه الكلمات ، وربما أضيف إلى العدد الفان ، عندما نصل إلى برهة قراءة القصة ، فيصبحون إثنين وأربعين الفا من النفوس .

هاجر فرع من العائلة . هج إلى بحرى ، حيث إستقر في قرية الضهرية مركز ايتاى البارود ، محافظة البحيرة . وعمومًا فإن دوافع الهجرة ، وأسباب السحان ، وخلفيات الطفشان من فرن قبلى ، إلى طراوة بحرى ، التي تبدو مثل

دمعة البنت البكر ، هـي قصة أخرى . تخرج عن سياق حكايـة البلبل والمرافعة والقفص .

اسم المؤلف الحقيقي الطويل . جرى إختصاره إلى اسم ثنائي، يقولون عنه في أوساط من يحملون الأقلام . يوسف القعيد . ومن يقابل بين الاسم المدون في الأوراق الـرسمية وهـو طويـل ، والاسـم المختصر . يكتشف أن الثـاني اسمًا للشـهرة ، كما يقال عادة في مثل هذه الأحوال .

ما إن عرف أن القصة فيها قفص ، حتى هز كتفية ، وقال ـ ربما لنفسه ـ ما الدنيا إلا قفص كبير . في القصة قاض حـر ولكنه غير طليق ، وامرأة في القفص ، وإن كانت غير سجينه ، وكاتب يجلس في مقاعد المتفرجين ، ويتسكع في شوارع المدينة لحظـة إزدحامهـا بالبشر المأزومين . وضـابط مطلى مـن خارجـه بطلاء يعطى الانطباع بالجسارة ، وأعماقه ترتعش من الخوف . ومحام لم ينتدبه أحد، ولا حتى المؤلف نفسه .

قرر المؤلف ، إن يحجز لنفسه مساحتين في القصـة ، مكان البداية ، وسطور الختام . أنانية ؟! ربما . ولكن هذا ما كان ، برر الأمر لنفسه .

قال إن القصة ، هي العالم الذي يخلقه ، ومن حقه أن يفعل به ما يشاء ، لأنه لا يفعل ذلك سـوى عندما يمسك بـالقلم ، وتكون أمامـه المساحة الفارغـة من الورق .

مؤلف

ومعالى الضابط

ومحام

وقاض

وامرأة

ها هم ، الذيـن يتحركون من خلال أفعال القصة . يقفـون في المسافة ما بين

القفص والمنصة . ومـا ادراك ما المنصة ، وماذا تفعـل بالناس ؟ عمومـًا ـ ومرة ثانية ـ تلك حكاية أخرى .

جـاء محمد بـن يوسـف بـن يوسـف مـن آل القعيد . أو يـوسف القعيـد ، فالاختصار والاقتصاد مسألة صعبه ، والدش يقدر عليه الجميع . جاء إلى قاعة المحكمة . نظر إليها . مسح جدرانها بنظراته . خرج ، عاين المكان المحيط بها من الخارج . زفر بضيق . لا يوجد في أى من جـدرانها القديمة والكالحة شباك يطل على بحر النيل .

ولا يرتفـع حولها شجر زاهـى الخضرة . يفرش الأرض بـالظلال . والأرض أمامها ليست سمراء غامقة ، مشربه بلون الطمى البنى الداكن .

بدون هذا الرباعى ، رائحة بحر النيل ، والخضرة المتماوجة على وجة الافق ، المنسدلة في المسافة من السماء إلى الأرض . والأرض السمراء ، والظلال المفروشة عليها ، مثل ثياب أهـل الجنة بدون هذا الرباعى ، يشعر بـالاختناق الذي يسبق طلوع الروح .

عندما شاهد الكاتـب ، الذي يجلس بين المتفرجين ، المؤلف ينصرف بسرعة ، وهو يبرطم :

ـ لن أعود إلى هنا أبدًا .

سـأله :

ـ على فين العزم ؟

قال المؤلف .

ـ أبحث عن الثـانية الأولى ، من الدقيقة الأولى، من السـاعة الأولى ، من اليوم الأول ، من الأسبوع الأول ، من الشهر الأول ، من العام الأول .

ـ وهل ستجدها ؟

قال :

ـ لابد من الطوفان الأول ، والسفينة البكر ، ونوح الأول .

قال له الكاتب :

ـ هذا فيما بعد ، المهم لابد من طوفان . ذلك هو الخلاص ، ربما الوحيد .

٢ ـ قصة أولى عن غزلان

حزينه كنت حتى الرغبة في البكاء .

ـ غزلان .

وحيدة رغم الصخب والضجيج والدخان ، وتداخل الباعة والحاجب ومناقشات المحامين ، وصفقات شهودًا الزور ، الذين سيصبحون في ساحة المحكمة ، شهود النفى ، وشهودًاالاثبات حسب مقتضى الحال ، وشروط الشهود المعروضين للإيجار معلنة ، بالصوت الحيانى ، وخوف شهود الصدق ، أن يتوه صدقهم في رمال الزيف ووسط أبخرة الكذب.

زحام من المتسكعين والعاطلين في دروب المحاكم ، أناس لا يعانون من الفراغ فقط ، ولكن لديهم تلك القدرة الفريدة على التحليق والبحلقة والتحديق في وجوه الآخرين ، وحشر أنوفهم حتى تحت جلود الناس . تنزل من أعينهم خيوط دهشة المقهورين .

نودى عليك ، تقدمت في مساحة القفص الضيقة ، قبل أن تردى ، يداك على قلبك ، الوجه مثل صفحة سماء صيفية خالية من زرقة السماء ، لا يوجد فيها ، ما يشير إلى ظلال سحب كاذبة .

ـ إسمك ؟

بدا وجهك يطلع من الضباب ، شيئـًا فشيئًا . أدرت رأسك ، إستمعت إلى صوت عروق رقبتك ، وكأن الصدأ قد لفها من كل جانب .

ـ غزلان .

إستمعت إلى صوتك وأنت تنطقين بالاسم ، فبدأ الصوت مدهشًا لك . أسندت جبهتك إلى يديك ، وكأنك تحاولين إنتزاع الكلمات من تجويف الرأس . ويظل وجودك مسنودًا على يديك لفترة قد تطول . لم تجدى في الرأس ما يمكن إقتلاعه من الأفكار والكلمات والحكايا .

كنت تهمسين ، وكأنك قدر ركبت فوق شفتيك كاتمًا للصوت ، يخفض من صوتك بعد النطق بالكلمات ، لدرجة أنه يصبح من الصعب وصولها إلى آذان الآخرين . تصغين إلى صوتك الآتى من بعيد ، المغلف بصدى الكهوف القديمة .

تحاولين الامساك بطفولتك الهاربة ، والتشعلق بأيام العفرته والشقاوة ، تلك اللحظات المجدولة من فصوص السكر وقوالب الشهد .

ـ عملك ؟

طأطأت رأسك تحت وطأة السؤال الثاني ، تشعرين بحالة من الهشاشة التي تكاد أن تحيط بك من كل ناحية .

ـ غزلان .

نصف ميته كنت ، تموت الكلمة الوحيدة على شفتيك اثناء محاولة النطق بها، ولا تخرج أبدًا . تحاولين التحليق بجناحى زغلول لم يكسهما الريش بعد . زغلول ينام مسترخيًا في دفء عش الأم وتحت باطها .

مقطبة الوجه لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهك ، حتى لو أجبرت نفسك على الضحك ، فإن مشروع الضحكة ، كان سيرتد إلى داخلك ، يجوس في تجاويفك ولا يتجه إلى الخارج .

ـ عمرك ؟

صعدت مع زميلاتك إلى القفص ، الذي يوجد في قاعة المحكمة ، الصعود كان على سلم حلزوني ، يطلع في منتصف القفص ، وآخر السلم من تحت ، ينزل إلى المكان الذي يجرى فيه تفريغ الوارد من السجن ، حتى تنعقد جلسة المحكمة .

في أول الطابور حارسة ، وفي آخر الطابـور حارسة ، يسبق اسم كلا منهما ، كلمة شاويش .

في منتصف الطـابور كنت ، وفي منتصف القفـص جاءت وقفتك ، فانـزاحت عنك رعشة الخوف ، وهدأ قلق التوتر .

ـ غزلان .

يلمع في مقلتيك بريق هادئ ، وتحط كـل عصافير الكون على رموش عينيك الطويلتين .

تمشيت في القفص ، تبخترت فوق أرضيته الـوسخة ، كدت أن تدوسـين على أعقاب السجائر وبقـايا السندوتشات وقشر اللب . فكرت . بحثـت في ذهنك عن تلك الإنسانية ، خـالية القلب ، رائقة البال ، التي وقفت في القفـص ، وهي تقزقز اللب ، بدلاً من التوهان في غابات الخوف والمجهول .

حاولت التحليق فوق السحاب ، ولكن السماء كانت بعيدة يفصلك عنها سقف المحكمة ، والأدوار التي تنام فوقه .

يشترك وجهـك كلـه في البوح والكـلام عنـدمـا تنطقين . والـلاتى حـولـك يتضاحكن ، يثرثرن . إنها نفس الكلمات التي تقال عادة في مثل هذا المكان ، منذ أن تم بنـاؤه . وسوف تظـل تقال إلى أن يتـم هدمـه . يوم لا يكـون على الأرض محاكم ولا مساجين ولا سجن ولا سجانون .

تتماحك رفيقات القفص والبرش والمحنة ، تحاول كل واحدة منهن ، إصطياد نظرات رجل ما . يتباكين . ضحكة ثم بكاء ، وبعد البكاء ابتسامة . تتغير أشكال أحنكة المحيطات بـك ببطء . إنها القصص المعادة نفسها . تصعـد إلى الحناجر ، ويبدأن في اجترار الكلمات ، مثلما كانت تفعل المواشي ، في براح الغيطان البعيدة ، بعد وجبة خضراء ، لم يعدلها وجود في أيام الجدب وأزمنة الجفاف .

ـ هل اعتدت على ممارسة الدعارة ؟

ـ غزلان .

هيفاء ، طويلة ، عمود من العمدان التي ترفع السماء عن الأرض . سمراء كأنك قطعة نساها الليل ومضى هاربًا أمام النهار الذي جاء قبل أوانه .

فوق سمارك ملابس فضفاضة بيضاء . يفوح منها الطيب والمسك ، ومن الاعطاف ينتشر بخور ، يحمل إلى الروح ذكرى مجالس العشاق . إبتسامة قبل النطق بالكلمات، إبتسامة قبل نزول الصمت . يا لقدرتك على الابتسام وأنت في هذا الموقف العصيب . قطع من النور تضيء ظلال وخفايا ليل جمالك الجميل .

ـ ما هو سبب وجودك في الزمان والمكان الواردين بمحضر الضبط ؟

ـ غزلان .

جسدك مشدود على قالب من الجمال . عندما جاءت كل ردودك ، على كافة الأسئلة بكلمة واحدة ، لم يسكن التلجلج بين الأحرف ، كما يحدث ـ عادة ـ عندما تتكلم بنات المقدر والمقسوم . لم تقومي بالتجول بين الاكاذيب ، حتى يمكنك العثور على أكثرها مناسبة ، واقواها قدرة على إستدرار الدموع .

ـ ما هو ردك ، على ما جاء في أقوال الشخص الذي ضبط معك ، من إن هناك اتفاقًا قد تم مع وسيط ، وإن جعلا من المال قد دفع ؟

جاء الطابور من السجن ، في صندوق سيارة مغلق بقفل كبير ، كنت تسمعين صوته واضحًا عند الفتح والاغلاق . سجن متحرك على عجل ، شبابيك الصندوق الصغير عبارة عن حزم متشابكة من الأسلاك الشائكة . والباب صغير ، لا يمر منه الإنسان إلا إذا انحنى . والقدرة على الانحناء أهم ما يطلب من أى كائن حى . وكل من يرفع رأسه ، إستجابه لنداء أو شعار ، فهو يقدمها للسيف الباتر ، ومصيرها أن تطير في الهواء ، مثل الكرة . ولكن الكرة أكثر أهمية من الرأس .

ـ غزلان .

بدأت الرحلة من سجن النساء وقت الفجر الأزرق . عندما كان القمر يدخل

تحت سحابه كثيفة ، يستر بها عرية الليلي ، من نور النهار الفاضح . كان الليل يّخلع الثوب الأزرق ، الذي مزق به رداء الظلمات ، ويرتدى جلبابًا رماديًا . سرعان ما يستبدله بقماشة صفراء ، فيها لون نور الشمس الصباحى البكر ، الذي لم يلوثه أحد بعد .

ـ هل أنت مذنبة ؟

لن تعودى إلى السجن ، إلا بعد نزول الليل القادم ، عندما تصبح سماء الله العالية ، مساحة من الظلام ، منقوشة بنجوم لا حصر لها ولا عدد . كنت تتمنين أن يكون أول ما تقومين به ، بعد الخروج من السجن ، هو أن تعدى هذه النجوم، ولكنك لم تسألى نفسك : هل تقدرين ؟

ـ غزلان .

اللاتى حولك ، منهن من تبكى ، ومن تصرخ ، ومن تقول أنها بريئة ، ومن تقسم أنها مظلومة ، ومن تزعق قائلة إن القضية جرى تلفيقها لها . ومن أصبحت عيناها كاسات من الدماء . ومن تئن ، ومن تحكى ، كما لو أنها بلعت كل راديوهات العالم .

أما أنت ، فتقفين في براح ملابس السجن البيضاء الواسعة عليك تبتسمين ، وتحركين شفتيك في هدوء ولا تقولين أكثر من :

ـ غزلان .

تقولينها للقاضي ، ولزميلات الزنقة والوحشة ، أرهقتك الأسئلة ، التي لا أول لها ولا آخر ، والإجابة المكونة من كلمة واحدة . عندما قلت غزلان ، لآخر مرة . حدقت في القاضي والشهود ، والضابط ، الذي يقف في الناحية الأخرى من المحكمة ، والمتفرجين بوجه مرن ، كان المشهد كله يطفح بالرثاثة .

بدوت يا غزلان تائهة في ذكرياتك ، البعيدة والقريبة ، ربما كنت تحاولين إقامة بيت في الهواء ، أو أن تسندى جدران عمرك حتى تقينها السقوط أو

الإنهيار . أو أن تكتبى ردودك على الأسئلة الموجهة اليك ، على وجه الماء .

تحاولين استعادة روحك من قطرات الدموع ، تداعبين عروق زغاليل الحمام الدافئة ، في الغية التـي تقيمنها فوق صفحة خيالك الطـافحة ، على سطوح بيتك الذي كان تائها وسط المغارب الشاحبة .

كان السؤال ، قبل الأخير :

ـ هل معك محام ؟

ـ غزلان .

رجوت دمـوع العين أن تسعفك ، ولكنهـا لا تأتى عنـدما نـريدهـا . قصتك مطمورة في حبه الفؤاد ، في ابعد مكان عن حنجرتك .

الذهن غـافل ، في النفس فراغ ، وهناك رغبـة في الغفو ولو قليلاً مـن الوقت . متى تفرجين عن الابتسامة المعتقلة بداخلك ؟ متى تطلقين بريق عينيك لكي يشع حولك ؟ متى تخرج روحك من كل هذا الانتظار المغيظ ؟

أسئلة أخرى كثيرة كـانت تطرحها عليـك القاعة والمحكمة والنـاس ، وحتى غبار الجو ولغط الأصوات من حولك .

العودة ، الخطوات وكأنها ظلال وغيـوم . سيارة المرواح ، ولكن إلى أين ؟ من الجدران الأربعة إلى القفص ، إلى الجدران الأربعة مرة أخـرى . سيارة الرجوع ، هل هي نفسها سيارة المجيء ؟ تفكرين فيما آل إليه الحال . من كان يتصور ؟

نوبة شجـن ، نوبة أسى ، نوبة حـزن ، نوبة تأمل ، نوبـة رحيل إلى كهوف الداخل ، نوبة خـروج من بحار التعاسة ، نوبة الرغبـة في البكاء ، ولكن أين هي دموع العين ؟

نوبات ، نوبات ، نوبات . ليس من بينها نوبة فرح ، ونوبة حبور أبدًا ، أبدًا ، أبدًا .

قصة ثانية عن الضابط

الموت قبل الحياة ، العقوبة قبل النجاة ، التهمة أولاً ثم يدوخون السبع دوخات بحثًا عن البراءة المستحيلة . لا مفر من السياسة ، هي منقذى الوحيد ، معجزة المعجزات . الاكسير الذي يقدم لنا الحل السحرى في اللحظات العصيبة . تطل السياسة ، وتدس أنفها في أى قضية ، من القضايا ، فتقدم الحلول الخيالية، كلما تعقدت الأمور في وجو هنا .

بالسياسة سأنتصر عليهم جميعًا . المهم أن تكون هناك تحريات دقيقة ومحكمة بصورة جيدة . زبون من دول الرفض ، زبون من أولئك الذين يتكلمون ليلاً ونهارًا عن هموم الوطن ، المهم أن تكون العملية نظيفة لا تسيل منها نقطة دماء واحدة ، ولا تخلف وراءها أى جراح .

تنظيم داخلي ، أو جماعة متطرفة ، تأخذ التعليمات من الخارج ، تتصل بهذه الإنسانه ، حيث تنقل الأوامر إلى باقى أفرع وعناصر التنظيم . ثم تحل كافة الأمور دفعة واحدة .

فرجت وكنت أظنها لا تفرج . جاءت الفكرة بسهولة . الاحتراف أفضل الف مرة من الهواية . قرأت اسم القاضى الذي ينظر القضية . هبطت روحى في مواسير قدمى ، بينى وبين هذا القاضى « تاربايت » كما يقولون . لا معنى لحياتى إن لم أشرب من دمه ، واقطع كبده بين أسنانى . قضى على انتصاري من قبل عندما أصدر حكمًا بالغاء الحكم الخاص بحرق الكتاب الفاسق الفاجر في ميدان عام .

كنت أعتبرها ضربة العمر ، الأثر الذي سيحدثه الحكم مضمون ، سيهز

البلاد هزاً . سواء من الذين سيعجبون بالحكم ويفرحون به ويهللون له ، أو من المهاويس الذين سيقفون ضده . سيكتبون كلامًا كثيرًا عن الحضارة والتاريخ والثقافة والأدب . كانت بعض المقالات قد بدأت تنشر وتقارن بيني وبين جنكيزخان وهولاكو ، وما جرى لمكتبة بغداد ، وحرق مكتبة الإسكندرية.

كتابات تتحدث عن التاريخ القديم ، تعرض حوادث خارجه من بطون الكتب الصفراء . هل سيدرك أحد مغزى هذا الكلام الصعب ؟ عندما تطرق أحدهم إلى هتلر وموسوليني ، وكتب كلمتي النازية والفاشية ، قلت : فرجت . فركة كعب وتأتى الركلة الأخيرة إلى أعلى . ليس مهما الوسيلة ، أو الطريقة . المهم إلى أين تصل بنا الأمور ، النتائج هي الأساس .

يوم إصدار الحكم ، بالغاء مصادرة الكتاب ، هو اليوم الذي وقعت فيه الواقعة ، إنه النهار الفريد الذي ما يزال مستمرًا . جاءت قضية هذه المرأة . آه من هاته النسوة اللاتى يكون من المستحيل معرفة اعمارهن الحقيقية . لا تعنيني الاخريات . المهم بالنسبة لى : كيف أجعل هذه الإنسانه مغسولة من كل الاسرار والخفايا ؟ كيف أمحو مناطق الظلال فيها ، وانقلها إلى مساحات من الضوء المباح أو المستباح للجميع .

تعبت في جمع المعلومات ، والجرى وراء التحريات ، والسؤال عنها ، علاوة على الذين كلفتهم بالعمل معى فى هذا الموضوع ، ومع هذا ، لم ينجح أحد فى اخراجها من الغموض الضبابى ، الذى تقف فى وسطه ، ما تحدث أحد عن أكلها وشرابها ، ولحظات نومها . اين ولدت ؟ وكيف عاشت ؟ ومن أين جاءت ؟ حتى اسمها الذى قالته فى المحكمة . لا يوجد ما يؤكده أو ينفيه . اما باقى اسمها فلا يعرفه أحد .

إنسانه لها اسم وحيد ، لا ثانى ولا ثالث له . وقوف هذه الجنيه أمامى شق عمرى إلى شقين ، السنوات التى مضت ، والأيام القادمة . ان كانت هناك أيام قادمة أصلاً . ليست إنسيه أبداً . من بنات الجان هى . خرجت من البحر ، أو

طلعت من بطن الأرض الســابعة ، أو نزلت من السماء السابعــة . ولكنها ليست مخلوقة مثل كل البنى آدميين الآخرين . معجونة من ماء العفاريت .

على أن أكتب ما توصلت إليه ، وهو مــا يحوله السيد وكيل النيابة إلى الخطبه أو المرافعة . يوشــك القلب أن يقفز خارج قفصه الصدرى ، ويـرقص فى العراء . ألهث وسط الكلمات ، ومــن شدة الحماس ، أوشــك أن أستمع إلى صــوت دقات قلبي . أبحث عن لسانى الجاف . اكتشف أن ريقى كله قد جف .

أتوقف أثناء الكتابه ، أفكر فى الجملة التالية ، أتخيلها تنظر نحوى ، تصفعنى نظراتهما ، اشعـر بالنظـرة قوية على خــدى ، أنا الآن فى الطـريق مــن البيت إلى المحكمــة ، هــل لا بــد مــن الاستماع إلى أقــوالى ؟ إن الاستماع إلى أقــوال محرر محضر الضبط فى الجنح جوازى ، ومرهون بإدارة المحكمة . وطلب دفاع المتهم ، وفى الغالب الأعم لاتسمع أقوالهم . ولكن من يدرينى ، ماذا قد يفعل هذا القاضى معى ؟ ان احتمال الاستماع إلى أقوالى خلال المحاكمة هو أصعب ما فى الأمر كله.

شاهد أنــا . اقوالى ستكون شهادة إثبـات للتهم الموجهة إليها . الطـريق من المحكمة إلى البيت ، طـريق بدون نهاية . متعـب أنا والسكه مزدحمة ، لا بـد من التوقف على الرغم مــن العلامة الموضوعة على الزجاج الأمامــى والزجاج الخلفى لسيارتى ، والتى تجعل منى مواطناً فوق العادة ، إنسان من الدرجة الأولى .

هيلمان الحكم على زجــاج السيارة الأمــامى ، وزجاجهــا الخلفى ، ومــع هذا أتوقف فى الاشارات . لابد من موكب ومــوتوسيكل وزمامير واخلاء الطريق قبل مرورى . ولحظة عبور الطريق ، يصبح الشارع مساحة مبطنه ، على الجانبين ، بنفوس البشر ، الــذين ينظرون إلى . انها الخطـوة الأولى التى لا بـد وان تتبعها خطوات أخرى . لا يعرف إلا الله سبحانه وتعالى عددها .

من أين يأتى الخمول ؟ ومن أى الأماكن يتسلل الملل ؟ طبقة من الرماد تغطى نظراتــى . شىء غامـض يزحف إلى حياتــى ، عبر شوارعها الخلفيــة . أحاول ــ

مجرد محاولة ـ أن أقنع نفسى أننى إنسان سعيد . وان كانت هذه السعادة ، فى ابعد مكان عنى .

بجوارى الأوراق . فيها نتائج التحريات ، والحكاية كلها تدور فى الذهن ، كلمة وراء كلمة ، وقصة تولد من قصة . ومع هذا ، أشعر انه لا قيمة للأمر كله. معركة خسرتها قبل أن تبدأ . ما دامت التى تقف فى القفص ، تلك الكائنة الخرافية . التى ترفض أن تتكلم . لم تنطق سوى ما نتصور جميعاً أنه اسمها الأول .

لا يوجد معها ما يثبت شخصيتها ، وأوراقى خالية مما ينفى أو يثبت أى شيء عنها. حتى لو أحضروا لها كماشه لكى تقلع الكلمات من فمها . لن تتكلم ، لو فتحنا فمها بسكين حام لن تنطق . مصيبة . لابد وان من تعمل لحسابهم . هم الذين أشاروا عليها بالصمت .

لن أخسر القضية ، بسبب صمت هذه المتآمرة فقط . ولكن لأن الذى يجلس على منصة القضاء ، هو ذلك القاضى ، الذى لا أشك لحظة واحدة ، انه من مجانين هذه الأيام . كان من المفروض على أن أجمع المعلومات ، واقوم بالتحريات عنه ، بدلاً من اللهاث وراء هذه الإنسانة .

لا قيمة لكل ما فعلته ، ما دام هذا الانسان هو الذى يجلس على المنصه ، وهو الذى سيصدر الحكم . صدفة أم ترتيب غريب ؟ يبدو لى ، ان هذه الغزلان قد خرجت من بين صفحات الكتاب إياه . أو ربما كانت هى التى تحكى ما يجرى فيه من حوادث غريبة ، وحكايات عجيبة .

سيطاردنى هذا الكتاب كل ما تبقى لى من سنوات العمر ، كتاب مسكون بهذا النوع من الناس الغجر والنور . فى كل قضية قد يخرج لى إنسان آخر من سكان هذا الكتاب ، أى كتاب هذا ؟ أى كتاب ؟

أخشى هذه الليلة ، بعد ان أنام، إن نمت ، أن يزورنى فى المنام مسرور السياف [كيف يكون مسروراً ، هكذا إسمه على الأقل ، وعمله إرسال الناس إلى

الآخرة ؟!] يأتى فى المنام وبيده سيفه ، ويقطع رقبتى .

من يحميني من سكان هذا الكتاب ؟ اين الزملاء والسلاح والحراسات وترسانة القوانين والسجون والمعتقلات ؟ من الأفضل لى ، وحتى الإنتهاء من نظر هذه القضية ، إلا أنام بمفردى أبداً .

قصة ثالثة عن الكاتب

متى يــأتى دوخان الشهرة ؟ متــى ؟ جئت في معمعان زمــن الكتبة الجارح ، ذلك أن أيام الكتاب قــد ولت هاربة ، ولن تعود أبدًا . كتبة مــن الخلف ، كتبة من الأمام ، كتبة على اليمين ، كتبة على الشمال ، كتبة من فوق ، كتبة من تحت .

لا يبحث طابــور الكتبة سوى عن التصــاق جباه الكتبة بأحــذية الحكام ، لا يهم من هم . أى حكام والسلام . المهم أنهم حكام وكفي .

عندما جئت إلى هنا ، لأول مرة ، كنت أجرى وراء الكتاب الذي جمع لى فتات الضوء المتناثــر في أرجاء هذا الكونْ . كان مطلــوبًا إحراقه في ميــدان عام . جئت بهدف وحيد ، هو الاطمئنان على أن عقلى لن يباع ، بعــد حرق الكتاب ـ إن جرى حرقة ـ في مزاد علنى .

كنت مرهقًا ، إرهاقًا لاشفاء منه ، مرهق من نفسي ومن العالم . حضرت لكي أحل المسائل المعقدة . ولكني عقدتها ـ دون أن أدرى ـ أكثر بحضورى .

وعندمــا حدقت في العقدة ، إكتشفــت إنها معقودة ، من حبال مــن الحرير . أدمنت الحضور إلى هنا حتى رأيتها . سألت نفسي ، ربما تقابلنا من قبل ، الروح ولفت على الروح ، والقلب عانق القلب . ربما جرى اللقاء دون أن ندرى . تمليت وجهها . شربت حلاوة روحها حتى النقطة الأخيرة .

أوشكت أن أطير من الأرض السابعة ، حتى السماء السابعة ، كي أشرب من ماء البحر السابع ، الذي لم يصله إنسان قبلي . ولن يصله إنسان بعدى .

قفزت روحى من النشوة . من قبل كنت أتحرك ، أتكلم، أبوح كشخص طفح

بـه الكيلان . كيـل الـداخل ، وكيـل الخارج . كنـت أجـرى وراء البريق ، الـذي إكتشفت الآن ، إنه كان بريقًا كاذبًا وخادعًا .

كنت ، خلال رحلـة الجرى والتعب واللهاث ، أشعر إننـي مغمور بالامجاد . لكنني استمعت ، هـذا اليوم ، إلى صوت يذيب حتى قلـوب الحيوانات والجوارح والصخر والحجر .

سؤال القـاضي الأول كان عن اسمها . شكـرته في نفسي ، لأنه مـن الأحسن والأجمل أن يرتبط كسمها في ذهن وفي خيالي ، بإسمها ، وإلا كيف سأفكر فيها؟

نظرت إلى القاضي ، حاولت البحث عن الخيوط المشتركة بينه وبينها . كلاهما متعب . وجدتنـي أدخل من أوسع الأبواب ، إلى دائرة المقارنـات الجهنمية، بينها وبين القاضي وبيني . الدائرة التي تجمعنا ، دائرة ضيقة وواسعة . تبدأ من قاعة المحكمة ، وتصل إلى الدوائر التي نتحرك فيها نحن الثلاثة .

ربما فكرت في صدر شبـابي أن أكون قاضيًا ، وربما حلـم القاضي ذات يوم مبكر من أيام عمره أن يمسك بالقلم . يكتـب عن حيوات وحكاية الآخرين ، بدلاً من أن يحدد مصائرهم بالاحكام التي يخطها على الورق .

سؤال القاضي الأول ، لم يكن سؤاله الأخير . عنـد الرجل سجل لا ينتهي من الأسئلة . إنها نفس الأسئلة التي يوجهها إلى كل من يقف في هذا المكان . الغريب إنه لم يفرق بينها وبين الأخريات ، مع أنها من المستحيل أن تكون مثلهن .

عضضت على شفتـي . يحاول الرجل ، أن يـدرس بقدمه الغليظـة في قلبها . ياله من قاس . يخيل إلى أنه قد يكون أقسي من جلس في هذا المكان . كانت تنطق بالكلمة الوحيدة التي رددتها في بطء شديد . نظرت إلى القاضي سألت نفسي : الا يعـرف هذا الـرجل مـدى التعاسـة التـي يسببها لـلإنسان إحتبـاس الكلمات بداخله؟!

ألم يجرب من قبـل التعب والضنـى والارهاق الذي تـولده مـرارة إصطدام الكلمات مع بعضها ؟ ربما لا يعـرف ، لأنه لم يجرب ، قاض ، يجلس في مكـانه

العالى . يطل على مخاليق الله المساكين ، ينطـق فيحدد مصائر خلق الله ، بصورة شبه نهائية . كلمته لا ترد إلا من خلال محكمة أخرى .

وحتى تقول هذه المحكمة الأخرى كلمتها ، تمضى الأيام ، وتجرى الشهور، وتتسرب السنوات . وان كان يوم الحكومة بسنة ، فإن يوم المحكمة . بقرن كامل من الزمان .

أنقذ الموقـف إنها ردت على كل الأسئلـة بكلمة واحـدة ، لابد وأنها إسمهـا . تجولـت بنظراتـى ببطء في المسـافة بينهـا وبين القاضي ، الهواء حـوله محمـل بالرغبـة في السؤال عن مصائر الناس ، والتسلل إلى شـوارع حيواتهم الخلفية ، وتمزيق ما يسترهم وتركهم عرايا .

نظرت إليها من جديد ، سـألت نفسي : هل يأتي يوم تكف فيه هذه الفاتنة عن إن تكون فاتنــة ؟ وتتوقف الجميلة عــن أن تكون جميلة ؟ هل يــأتى زمان يهدد فيه صورتها المتألقة ، وحضورها المتوهج ، ذلك النسيان المبكر ؟

كانت القاعة تختنق من الحر ، القيظ أعمدة والغبار سحابة لا تتحرك ، أراها من مكـانى ، وهي غـارقة في الظلال ، تائهـة في أبخرة الحر . حاولـت أن أتبادل معها النظرات . بدوت وكأنني أحاول العثـور خلف المظهر المرهق ، على ذكريات تائهة في زاوية ما من زوايا الذاكرة .

كان إسمهـا غريبـًا ، وكانت رمـوش عينيها معلقـة على تخوم أشياء كثيرة مدهشة وغامضة . ربما جرت من قبل ، وقد تحدث في الأيام القادمة .

منذ أن لدغتنى علة قراءة أحرف الكلمات المكتوبة ، التي أخذت رموش الاعين إلى العلالى ، لم يفارقني هذا الوجع والحنين . عبـد لأخبار الآخرين أنا . أعيش في شقة صغيرة . تغوص دومًا في الظلال المريحة . أكتـب رسائل . اتحدث فيها عن أشيائي الجميلـة ، والآمال الحميمـة وحالات القلـق . كان يتسلـل إلى إحساس سرطانى بأن الحبل السرى الذي يربط الأشياء يوشك أن ينقطع .

رأيتها ، فقلت لنفسي ، على الفـور . ها هي أدفأ نسـاء الكـون ، فضلاً عن أنها

أكثرهن جمالاً . من المؤكد أن لديها مزايا أخرى ، غير جمالها . همست لنفسي ، لا شيء يعادل أبدًا ، دفء إمرأة ، في هذا العالم .

ليلة الأمس ، كنت أجلس في شقتي الصغيرة التي هجرها ضوء النهار ، كنت أقول لنفسي ، إنه في اللحظات الحاسمة من العمر ، لابد وأن توجد إمرأة ما . تخرجني من الظلام إلى ضوء لا أعرفه .

لا ترسل هذا الضوء سوى إمرأة ، كان من الصعب على ، الهروب من النظر إليها ، أبعد عيني عنها ، لكي تعودا إليها من جديد رغمًا عني . نظرت إليها لا أدرى للمرة الكم . قلت لنفسي الكتابة عملية مهيجة للشهوة .

حاولت من جديد ، أن أربط بينها ـ وهي تقف في القفص ـ وبين القاضي ، الذي يجلس على المقعد الرئيسي ، الذي يتوسط المنصة ، وبيني .

عندما سأجلس ، لكي أكتب عنا نحن نحن الثلاثة . سأبدأ بهذه الجملة :

ـ كلنا رهائن أحلامنا .

إنسالت الخواطر في عقل بالى . لا يوجد رجال عاجزون ، في هذا العالم . ولكن توجد فقط نساء لا يعرفن كيف يخرجن رجالهن من ورطتهم ، بأقل الخسائر الممكنة .

سألت نفسي عن بكارات البدايات . المرة الأولى ، التي تصل بالإنسان دومًا إلى عنان السماء ، وبعدها يتحول الأمر إلى خلاعة مملة ومرفوضة . إنه الحنين إلى البكارة ، خاصة وأن الحياة تجعل الإنسان أقل براءة بصورة تدريجية .

إنسانة عامرة بشعف جارف للحياة ، لا تعطى نفسها بالبراءة القديمة ، حتى لو أرادت أن تخرج نفسها ـ ولو بالقوة ـ من أحرف جملة مكررة ومعادة. كانت تريد أن تكون . تبحث عن صداقات يملؤها التواطؤ .

في هذه المرأة نزوع خارق وجنوني ، لأن تكون شهيدة تحبس نفسها في حالة إنكتام مطلقة . تعانى من قلق مفرط ، ومن نفاذ صبر . تبدو في انتظار ، ذلك القادر على اكتشاف المناطق المدارية في روحها .

متى يأتى دوخان الشهرة ؟ اضحك من أحلامى ، الأفضل لي هو أن اتساءل: متى تشتبك نظراتى ونظراتها ، في لقاء احلم أن يطول حتى آخر لحظة من العمر؟ .

شعرها مرشوش بالليل ، عيناها لم يتجول فيهما الخوف قط . هل اخرج من هذا المكان ، وأبدًا في النظر إلى الأمر ، باعتباره واحدًا من كوابيس هذا الزمان العصيب ؟ وتتحول الفاتنة إلى واحدة من أكثر الجميلات اللاتى ضعن منى في الطريق ؟ وتسبب لي دائمًا حالة من التوتر المجنون ؟

أصل إلى تخوم الهذيان ، أقوم ، أتمشى في القاعة المزدحمة ، لا توجد أمامى فرصة الآن لكي أمارس هواية التسكع الجميل ، والتحديق في وجوه الناس ، والذهاب والإياب ببطء ، والرواح والمجيء على مهل .

احترفت الكتابة ، وعندما أصبحت الكلمة قنطرة إلى لقمة العيش ، أدركت أنني وقعت في الفخ ، وكانت تلك مصيبة العمر كله . الكلمات ، إنها قضائى وقدرى . الكلمات كانت معشوقتى السرية ، التي اكتشفت أنه ليس أمامي سوى إدمانها طوال عمرى . وجع ؟! ربما . ضنى ؟! قد يكون . عذاب ؟! جائز ، ولكن في كل هذه الأحوال ، كانت الكتابة فعلاً طافحًا بالسرور والبهجة .

حاولت أن أصون حياتي الخاصة بعيدًا عن الابتذال اليومي الرهيب ، بعد أن أصبحت دقائق وجودى قابلة للاختراق ، ما أحتاجه هو الصمت ، والبعاد عن الآخرين . سيكون عنوان ما أكتبه هو « غزلان تصعد إلى السماء » . لا سيكون العنوان « غزال البر » . إنه ليس عنوانًا جيدًا . سيصبح العنوان : مهرة الريح . لا . سأكتب : فرس النبى . هكذا أنا . كانوا يقولون عنى في طفولتي : حجه البليد ، مسح السبورة . وهكذا أنا الآن . ما إن أقف أمام أى طريق جديد ، حتى أبدأ في البحث عن العقبات ، وافتش عن العراقيل . أتوقف قبل أن أبدأ ، لن تنقذنى سوى تلك الكتابة الفريدة التي لا تكتب سوى بحبر القلب ، أو القدرة على الكتابة على سطح الماء ، والتدوين على وجه الريح .

أكتشفت في جلستي في المحكمة ، في هذا اليوم العصيب ، إنني لم اتمكن من تجنب بعض الأخطاء الصغيرة ، والحماقات الباهتة . ولم أستطع أن أتجنب فقد ونس الرفاق . ودفء الأصدقاء .

كل ما في العمر ، انقلب رأسًا على عقب ، كما يقولون في الكتابات الرديئة التي تسود في هذا الزمان . نمت وصحوت لأجد أن الأعداء من المفروض إن يصبحوا أصدقاء ، وأن الأشقاء من المحتم والضرورى أن تفصلنى عنهم بحار من الدماء. لدرجة أنه أصبح الاستمرار فيما كان من رابع المستحيلات .

لكي يحيا الإنسان في هذا الزمان ، لابد وأن يعلو كتفية رأسان . رأس له ورأس عليه . ولا مفر من الاستماع باربعة آذان . وعندما يحاول أن يرى ، لابد له من مائة عين . وإن فكر في النطق ، لن يستطيع ذلك إلا من خلال الف لسان ، وياويله أن كانت الالسنة التي ضده ، أكثر من تلك التي معه ، مع أنها جميعًا تتحرك في فمة . وعند الكتابة من يقدر على الامساك بالاقلام التي امامه مرة واحدة . وبيد واحدة . ويكتب بها جميعًا .

أتخندق ، لا مفر من الخندقة . ربما كانت الخندقة هي الخلاص الوحيد اليوم . بدأت حالة من الانطفاء تتسلل إلى حماسي . لا أعرف لماذا جئت اليوم إلى هذه المحكمة ؟ اندفاعات ؟ مشروعات ؟ أحلام ؟ خيبات آمال ؟ حكايا ينسال منها الحزن ؟ كل ما حولى يحرضنى على الكسل ، يدفعنى لأن أحاول العوم فوق شواشى الأحلام .

يفزعنى أن الحياة تنزلق في الأبدية ، دون أن تترك أى أثر . أمشى وسط حالة من التفاصح والتشدق بكلمات كاذبة . إنه التلاسن اليومي الذي لا يوصل إلى أى شيء البته .

أقضى النهار باحثًا عن لحظة من دفق الفرح . انظر إلى الناس ، يبدون وكأنهم ملفوفون في ملابسهم ، مثل الموتى وسط الاكفان ، محشورون في

بهارج عديمة القيمة . الناس من حولى يتحاسدون ، ويتناقرون ويتقاتلون حول أشياء تافهة ولا قيمة لها .

تحاول كل هذه التفاصيل القاتلة ، أن تنسيني المكان الذي رأيت فيه النور لأول مرة . تتوه من الذاكرة أول حصاه رميتها في شقاوة الطفولة الأولى .

انزل من البيت ، اتسكع في المدينة الكبيرة ، أمشي بدون هدف ، أبحث عن أى دزيعة للتسكع . حتى جئت إلى هنا . فأدركت أنه في هذا المكان ، يمكنني أن المس تعاسة الذين تؤرقني حيواتهم ومصائرهم .

كنت أحاول الخروج من جلدى ، والتحديق في الآخرين والمرئيات والأشياء . حتى أحاول صيانة روحى من اليأس وحماية قلبي من التحجر .

خرجت من باب المحكمة ، لفحنى هواء الشارع ، كأن رأسي مليئًا بالفراغ . سألت نفسي ، وما أكثر ما أسألها وأحدثها وأناجيها : متى أتمكن من الطيران ؟ ولو لمرة واحدة أطير ، قد تكون المرة الأولى والأخيرة . أطير في الضوء والشارع وسط الناس ، وأن فشلت في الطيران . تصبح قضيتي . هي كيف انتقل إلى الهامش في صمت تام . كيف ؟!

سبحت في الأسطر ، وعمت في قيعان أحرف الكلمات ، ولا جدوى ، طرت إلى الجنة ولا أمل . صعدت واستحممت في ماء القمر ولا شيء سوى خيبة الأمل .

أشعر بألم الاحتباس عندما تتعارك الكلمة مع الكلمة ، من أجل الخروج . وهذا يجعلنى أتعس إنسان في هذا العالم .

خلاصى الوحيد ، هو أن أكتب قصة غزلان ، التي لا أعرف منها حرفًا واحدًا. ليس مهما أن تعرف ، المهم أن تشعر ، أن تجيش النفس بهذا الشجن الجميل ، الذي يأتي بعده طوفان ولادة الكلمات .

سأكتب القصة ، فهل يأتى بعدها دوخان الشهرة اللذيذ ؟ أبحث عن العنوان، كلماته طويلة . غزلان . أضيف إليها العبارة الآتية : آخر أرض حنت

إليها الطيور المهاجرة ، أسطر كلماتي على الشوارع المعفرة بالثرثرة والهوان . ها هي الكلمات الأولى من القصة .

أتوقف وأسأل من كان يمشى بجوارى :

ـ أين كان يختبئ لي كل هذا ؟

لم يرد على الذي سألته . ضرب كفا بكف ومضي .

قلت :

ـ ياليت الذي جرى ما كان .

وقف ونظر أنى من بعيد :

ـ وكلمة ياريت عمرها ما عمرت بيت .

كتبت الجملة الأولى ، ولا أعرف أى كلمات مجنونة قد تأتي بعدها .

قصة رابعة عن المحامي

حضرات القضاة

حضرات المستشارين ..

أنا المحامى الذى تطوع لكى يترافع عن المتهمة التى لم توكل محاميًا للدفاع عنها ، وعندما سألتمونها ـ كما هو ثابت فى ملف القضية ـ أن كان معها محام لكى يترافع عنها . رفضت أن تجيب . قالت ما تعتقدون إنه اسمها . الذى شكل جميع إجاباتها ، على كل سؤال وجهتموه إليها .

فى مصر مثل شعبى يقول : من ليس له كبير . عليه أن يشترى لنفسه كبيرًا . وأسواق البيع والشراء مـلأى بالكبار والصغار . ومن حرم من الأب ، يمكنه أن يشترى أبًا له . من أى مزاد علنى أو سرى .

وهنا يمكننا أن نطبق هذا المثل ونقول : من لم يحضر محاميًا يتكلم بلسانه ، على المحكمة أن تنتدب لـه محام ، تدفع له أجره فى النهاية ، وذلك حسب نص مواد قانون الجنايات . وإن لم تنتدب المحكمة محام ، يبقى المتهم دون لسان يتكلم نيابه عنه .

ولأنه لم ينتدبنى أحد ، من أجل أن اترافع عن هذه الإنسانه ، ولأنه لا توجد قضايا أخرى فى يدى ، قررت أن أترافع عنها متطوعًا .

إنفردت بها أكثر من مرة . طرحت عليها كل الأسئلة التى أعرفها ، وتلك التى لها أعرفها . حتى أصل إلى أعماقها ، ولا فائدة . كانت المحكمة أسعد حظًا منى ، لأنها ردت عليها بكلمة واحدة . أما أنا فلم أستمع سوى لصوتى . وبعده كان يأتى الصمت .

وعندما وصل الحاحى إلى أقصى مداه . ردت على بدمعتين كبيرتين ، تحولتا إلى خطين يلمعان على خديها فى رحلة هابطة من أعلى إلى أسفل . شاهدت لمعان الدمعتين ، وأدركت أنه لو نجح المصريون فى إستنطاق أبو الهول ، واخراجه من صمته الأبدى ، وجعله يقول ، ولو كلمة واحدة . سأنجح أنا فى أن أسمع صوتها. بصرف النظر أن كان الذى سيخرج من فمها سيكون كلمة أو أقل .

لا أستطيع أن أقول عنها موكلتى ، فهى لم توكلنى . وإن كانت تبدو أنها ليست محتاجه لمن يترافع عنها ، فالأمر يختلف معى ، فأنا فى أمس الحاجة لأن اترافع عنها .

محام صغير أنا . جزء من دنيا الصراع بالاكتاف ، والحرب بالوجاهة فى الملبس . وتحديد القيمة بعدد من يمشون وراء هذا المحامى أو ذاك من الكتبة ، والمحامين تحت التمرين ، والسكرتارية من البنات خارقات الجمال والموظفين. عالم قاس لا يعرف الرحمة ، هناك من معه مائة قضية منظورة كلها فى يوم واحد، فى محاكم متناثرة من أسوان إلى الإسكندرية ، ومن لا يجد قضية منذ سنة مضت مثلى .

فرحت بالقضية . جئت إلى هنا فى الصباح الباكر بعدة الشغل ملفوفة فى ورق شفاف ، والورق داخل حقيبه سمسونايت لها أرقام سرية .

وعندما يبدأ نظر القضية ، ما أسهل أن أضع الروب الأسود فوق القميص الأبيض ، وأربط ربطة العنق ، ولكن بدون مرآة ، وأصبح محاميًا . أحد رجال القضاء الواقف على قدميه ، ثم انطق بالنداءين ، اللذين يخرجان من حبه القلب، من طول إحتباسهما فى أعماقى أيامًا وشهورًا وربما سنوات .

قبل أن انطق بهما اليوم ، لأول مرة ، واتمنى الا تكون الأخيرة .

عندما تحطمت جميع محاولاتى على صخرة صمتها ، قرأت ملف القضية بكل عناية . دونت ملاحظات من محضر الضبط ، وأوراق التحريات ، ووصف

وقيد النيابة ، واقوال الشهود ، وشهادة الشخص الذى ضبط معها .

كان لدى الوقت الكافى ، أنا فاضى ، والمثل يقول : معذرة يا سيادة القاضى . المثل حبك . خوفًا من هيبة المحكمة سأعدل المثل . إنه يقول . الفاضى يعمل محاميًا . لم اكتف بقراءة الأوراق . ذهبت إلى العنوان الوارد ف الأوراق ، بإعتبار أن الواقعة جرت فيه . سألت عن أطراف القضية الأخرى . وجاءت المفاجأة الأولى . قالوا لى ، لا توجد إنسانه تحمل هذا الاسم الوحيد .

لجأت إلى صفاتها الواردة فى الأوراق . قلت لهم عليها . وجاءت الإجابة بالانكار أيضًا . قلت لنفسى أن صاحب الشقة ، ومالك العقار ، والشخص الوسيط لهم مصلحة فى الانكار .

على بالذهاب إلى من كان معها . الذى يعد فى هذه القضية بمثابة شاهد إثبات. مع انه من المفروض على البحث عن شهود للنفى ، فذلك من مصلحة موكلتى ، أو التى من المفروض انها موكلتى .

إكتشفت أن العنوان الذى قاله فى التحقيق عنوان وهمى ، أنا محام ، ومن المفروض أننى كتلة من الذكاء . العب بالقوانين كما يلعب الحواة بالبيضة والحجر . عدت إلى رقم بطاقته العائلية ، من الصعب أن يزور بياناتها .رجال الشرطة ينقلون هذه البيانات بأنفسهم من البطاقات . وأن زور فى أى من بيانات البطاقة ، أو الصورة ، يكون من السهل إكتشاف هذا التزوير . وتصبح قضية جديدة . تجعل شهادته فى هذه القضية باطلة . ان كان رجل الشرطة قد نقل البيانات فقط . فسأقوم بتحقيق صدقها فى أرض الواقع . وإن وجدت أى كذب أو تزوير ، نخرجه من قضية موكلتى ، وندخله فى قضية أخرى.

وصلت إليه بعد عناء وتعب . أقسم لى أن الحكاية لم تحدث من أولها وحتى آخرها . قال لى إن وجودة فى هذه القضية يسعده . لسبب بسيط ، أنه يعيش مطاردا بشائعه انه عنين . أخرج أوراقًا رسميه كانت فى جيبه . تثبت هذا . أكّد لى

أنــه لم يسـع مــن أجل استخــراجها . لا يــوجـد رجل يفعـل هذا . تلـك الأوراق استخرجتها زوجته ، أو من كانــت زوجته ، وهربت من بيت الزوجية ، ورفعت عليه قضية تطلب الطلاق .

فجأة أمسك بى . قال لى إن القضية الجديدة ، مثـل القشه التى تبدو للغريق فى عرض البحر قبل أن يغرق . بهذه القضية الجديدة ، التى لم تكن تخطر له على بال ، يمكنه شطب القضيــة القديمة . وصدق هذه القضية ، دليلــه الوحيد ، لكى يخرج من الحكاية الأولى .

طلبت منــه الحضور إلى المحكمة ، وأصر هــو على أن أذهب معــه إلى المحكمة الأخرى التى تنظر قضية طلب زوجته ، أو التى كانت زوجته ، الطلاق منه .

دخلنا فى منــاقشة عقيمة عن أيهما يــأتى أولا. البيضة أم الكتكـوت ، أثبات رجولته أولاً . أم بــراءة هذه الإنسانه . تــأكدت أنه لو حضر إلى هنــا ، سيصبح شاهد اثبات من الطراز الأول ، حيث إن لــه مصلحة أساسية فى ذلك . نجاحه فى القيام بهذا الدور أمامكم ، سيخرجه من القضية التى هناك .

تشبث بشكل جنونى ، بأن اثبات رجولته ، يسبق براءة هذه الإنسـانه ، التى لا يعرفها . رفــض أن يتزحزح عن موقفــه ، مع أن تاريخ نظر قضيــة رجولته ، يأتى بعد شهور من نظر قضية براءة هذه الإنسـانه . قال لى بوقاحة « مصـالح » اكمل : « لكل منا أولوياته يا أخى » . قلت لنفسى : لا فائدة منه أبدًا .

تسللت هاربًا منه وعدت . تركته مثلمًا تخرج الشعرة من العجين . حتى دون أن اترك أى أثر لوجودى عنده . أو طريقه لكى يستدل بها على بعد ذلك .

قال لى الرجل، أن هذه الإنسانه مظلومة ، ومن فى هذا العالم لا يعد مظلومًا ؟ خلق الإنسـان ليظلــم ، لكى يقع عليه ظلم الآخــرين . وهذه الصياغــة من عندى طبعًا ، وليست من عنديات الرجل .

قدم لى صفقــه ، فى زمن الصفقــات . قال إن المرأة ، مــادامت دليـل رجولتــه الوحيد ، فهو مستعـد لأن يأتى ويشـهد ضدها . ثم يتــزوجها فى نفس الجلسة .

وهكذا يغسل نفسه من عار العجز ، ويبرئهـا من تهمة الدعارة التى لم يمارسها معها . ويخرجان معًا من المحكمة ، عريس وعروسة ، مع أن مثل هذه الحلول لا نراها سوى فى أفلام السينما فقط .

قال لى إن الشرط نور ، هو مستعد للحضـور ، بشرط أن أضمن له موافقتها على الزواج الفورى منه . ما دامت متهمـة فى قضية دعارة ، فلابد وأنها جميلة ، وطالما أنها متهمة بالاحتراف . إذن فهى تعرف من الفنون ، ما يضمن له خروجه من أزمته . الصفقة مضمونة بالنسبة للطرفين معًا .

أنا الآن فى موقـف لا أحسد عليه . هل أتـرافع عنها أم عن نفسـى . لقد قمت بتحضير مواد وبنود ، مـن أجل الدفاع عـن هذه الإنسانه ، التـى يوجد يقين لا يقبل الشـك لدينا جميعـًا ، إنها مظلومة . ابتداء مـن القفص ، الذى تقـف فيه ، وصولاً إلى المنصة .

مظلوم أنا الآخر . عندما كنـت أجلس على مقعد دارس الحقوق . كنت اسمع من أساتذتى ، ومن زملائى عـن محامى القطاع العام ، ومحامى المكاتب . الأول موظف ، والثانى هو القضاء الواقف .

رفضت الوظيفـة بدون مناقشة . انتفخـت عروق رقبتى ، وطق لى أكثـر من عرق ، وأنـا أقول إن المحامـاة رسالة ، وليست وظيفـة ، ولن تكون . مـن يقبل الوظيفة ، يكون قـد كسب المرتب الثابت ، أول كل شهـر ، وخسر فى نفس الوقت شرف الرسالة ، الذى لم يعد يستحقه أبدا .

من يقبض مرتبًا أول كل شهر ، ويجلس على مكتب ويوقع فى دفتر الحضور والانصراف ، كل يوم ، مرة بالحضور ، ومرة أخرى بالانصراف ، لا يستحق أن يحمل هذا اللقب المقدس : محام .

ما إن تخرجـت ، وصدقوننـى ، لم تراودنى للحظـة واحدة ، أحلام النيـابة والقضاء . وهذا ليس طعنًا فى سلطة من أهـم سلطات الدولة . ولكن للناس فيما

يعشقون مـذاهب ولولا إختـلاف الأذواق لبارت الوظـائف ، وضمرت الأدوار ، وتقلصت أشكال العمل .

أعود وأقـول ، إنني بعـد تخرجي ، اكتشفـت أن أفضل مـا يمكن أن أعملـه بالشـهادة ، هو أن أضعها فى إطار مذهب ، لكى تعلق فى صـالون البيت .

وعندما قلبت الأمر فى ذهنى ، جاءت الاكتشافات الغريبة . الاكتشاف الأول، أن المبلغ الذى سأدفعه فى عملية البروزة ، أنا فى أمس الحاجة إليه . والثانى أنه لا يوجد فى بيتنا صـالون من الاسـاس حتى أعلق فيه البرواز .

عند البحث عن العمـل ، بعد أن حاولت نسيان ما قلته على مقـاعد الدراسة ، إكتشفت أن القوى العـاملة ، وضعت على مكاتبها لافتـة: مغلق للتحسينات . أو لنكن أكثر دقة : مغلق لإعادة النظر .

المكاتـب الخاصـة أصبح عـدد المحامين تحت التمريـن فيها ، أكثر مـن عدد الكراسى والزبائن والموظفين . ويكثر العدد ، كلما ازدادت نجومية الأستاذ .

قبـل أن أتكعبـل فى هذه القضيـة ، كنـت آكـل بعـض سندوتشـات الفـول والطعمية، التى اشتريتها جـاهزة من إحدى المحلات . وفى الوقـت الذى حاولت فيه ايهام نفســى أن الطعام لذيذ . وقعـت عينى على خبر فى الورق الذى كـانت السندوتشات ملفوفة فيه .

الخبر كان عـن محام حصل على مليـون دولار ، نظير ابرام عقـد تأسيـس شركة إستثمارية أجنبية . وأنه حصل على أتعابه بالعملة الصعبة .

قضيت ليلتـى ساهرًا حتـى الصباح ، أحسب ما يعـادل هذا المبلغ بـالجنيه المصرى . مرة فى حالة تغييره فى البنوك ،

ومرة أخرى ، أن غيره فى السـوق السوداء . وفى المرة الثالثة أحســب الفارق بين تغيير البنـك وتغيير اقتصاد الظـل . كان جـزء من الفـارق ، قادر على حـل مشـاكل جيلى من المحامين الشبان بضربة واحدة .

لا أعرف لماذا أقـول هذا الكلام ؟ هـل أترافع عن نفســى أم أترافع عـن هذه

الإنسانة ؟ مظاليم كلنا إيها السادة ، تداخل الظلم فى الظلم . ما أكثر المظلومين . هل أقول . وما أقل الظالمين ؟ لا . سأقول . وما أكثر الظالمين أيضًا .

أعود إلى موضوع موكلتى . أمامكم احتمالات محددة ، أعرضها عليكم . وما نجده أكثر مناسبة . نلجأ إليه . هل أحضر شاهد الاثبات ، الذى يسعى إلى شطب قضية اثبات رجولته ، من محكمة أخرى ، حتى لو سجن هذه المظلومة ؟

المشكلة أننى لا أضمن أنه قد يتزوجها ، باعتبار أنه يرى أن كل الناس مظاليم ، وقضيتها لا تحرك ضميرة ، إن كان له ضمير أصلا . ثم أنه لو تشاهم، وطلب زواجها ، هل توافق هذه الصامتة الأبدية على الزواج منه . مع أننا لا نعرف كيف تفكر ولا فى أى إتجاه . ثم قد تكون متزوجة أصلا .

الاحتمال الثانى ، أن أتحول أنا من موقف المحامى إلى شاهد اثبات . اثبت لكم عدم وجود قضية من الأصل لأن الحدث لم يقع . وفى هذه الحالة ، سأكون أنا الخاسر الوحيد .

لأن الشهود ، سواء أكانوا شهود نفى أو شهود إثبات ، لا يحصلون على أى أجر من المحكمة لقاء شهاداتهم . شهود الزور ، الشهود المعروضون على أبواب المحاكم للإيجار ، فقط هم الذين يحصلون على أجور من أصحاب المصلحة فى الشهادة ، وليس من المحكمة . وأنا مستعد لأن أفقد أجرة الشهادة ، لقاء براءة هذه الإنسانة ، التى لدى يقين لا يقبل الشك فى براءتها .

وإن كنت أشك أن شهادتى يمكن أن تقود إلى البراءة . ربما يكون ممثل الادعاء ، فى الطرف الآخر ، لديه مفاجآت ، لم أضعها فى حسابى .

فى كل مرة تصدر المحكمة حكمًا . وأنا هذه المرة أسهل الأمور على هيئة المحكمة الموقرة ، ويصبح المطلوب هو الاختيار بين الاحتمالات ، وليس أن تحكم، والاختيار أسهل الف مرة من الحكم .

أنين خارج خطبة المرافعة

كان بودى أن أبدأ المرافعة هكذا :

كيف تأتى غيبـوبة المال ؟ متى يحط على الدوخان اللذيـذ الذى تخلقه عملية عد الأموال ؟

يبـدو أننى أنـا الذى سـأدوخ من كثـرة طرح هـذا السؤال على نفسـى ولا جدوى. وعندما يتـوقف الدوخان ، لن يأتى سـوى الجنون نفسه . المال يعرف من البداية من يحضر اليهم ، وأنا لست واحدًا من هؤلاء ، ولن أكون .

لن أنظر إلى فوق ، فمن يفعل هـذا قد تنكسر رقبته ، ولن أحاول الصعود إلى السماء بدون سلالم ، حتى لا أقع فيصبح أكبر جزء منى ، فى حجم حبة العدس كانت نفس المحكمـة تنظر قضية أخرى . يلهث وراءها الاعلام مـن كل جانب . قليل البخت أنا . فلابد وأن يكون مصير أى قضية أمسك بها هو الإهمال .

أما القضية الأخرى ، عند نظرها توجد كاميرات ، فلاشات ، أجهزة تسجيل، تصطاد حتـى الهمسات الطائرة فى الهواء . وأقـلام تدون على الـورق أى كلمة ينطق بها أى طرف من أطراف القضية .

رئيس النيابة الـذى طالب بحرق الكتاب الجميل فى ميـدان عام ، كان ينطق بالكلمات وهو يفكر فى المجد القادم ، كان يتخيل ، فى ذهنه ، مكتب النائب العام ، وليس أقل منه .

والضابط الذى جمع التحريات عن الكتـاب ، الذى ساعدنا على أن يكون لنا خيال . جـاء إلى المحكمة مـرتديًا بدلـة ملكى ، والضبـاط يفعلون هـذا عندمـا يفكرون فى المناصب العليا .

فكرت ، لماذا وقعت فى قرابيزى هذه القضيـة ، التى لا يهتم بها أحد ؟ سألت نفسـى : لماذا لم أجد لى مكـانًا فى قضيـة المجد والأضـواء ؟ هناك طـابور مـن المحامين ، يبـدأ من الكبـار جدًا ، من آل كـابونى المحـاماه المصريـة ويصل إلى الصغار من أمثالى . الذين يعفون حول القضية ، مثل الذباب الذى يتكاثر حول قطعة من الحلوى .

عالم من حيتان المحامين ، دنيا صورات القضاء الواقف . لا مكان لى بينهم . يكفيننى الوقـوف مع هذه النائية كالنجـوم ، المقلوعة من الذاكـرة ، الهاربة مثل أكثر الأيام بهاءً وجمالاً . يكفيننى التدحرج بين مواد القانون ، بحثًا عن براءتها المستحيلة .

كانوا يقولون فى طفولتى : عمدة فى عزبة منسية أم عسكرى داورية ليلية فى العاصمة ؟ أنا اخترت وانتهـى الأمر . سأبقى عمدة عزبة غـزلان التى توجد على شمال السما ، بدلاً من أصبح خفيرًا من متاهة هذا الكتاب الألفى الذى هز الدنيا كلها .

وبدلاً من أن يحاول المثقفـون معرفة ، من الـذى ألف وأبدع وخلق كـل هذا الجمال وكل هذا البهاء . تطالب النيابة بحرقه فى ميدان عام . مع أنهم لا يدركون أن الحرائق تقف خلف الأبـواب فى انتظار أن يندلع الحريـق الأول ، ومنه سيبدأ الاشتعال العام .

وسيقدمون هم خدمة كبرى . عندما يبدأون بأنفسـهم بإشعال الحريق رقم واحد . لأن الاشتعـال سيكون فى هـذه الحالة بعـود كبريت أميرى ، مـن عهدة خزائن الدولة .

قصة خامسة ـ ولن تكون الأخيرة ـ
عن القاضى

لا يمكن أن يحكى أبدًا . ما جرى لا يقال فى كلمات . كانت المحكمة عبارة عن مساحة من الغبار . كان متعبًا فى هذا اليوم أكثر من أى يوم آخر . كان ينظر إلى عاصفة الوجوه ، ويعوم فى بحار اللغط والكلمات . يتذكر هدوء البندر الذى يعيش فيه ، حيث يستمع الإنسان حتى لتنهيده الموتى ، ويسمع صوت صمته ، ويخيل إليه أحيانًا أن صفير اذنيه يحاصره . رآها ، شعر أنها أكثر إنسان تفاهم معه . وأن الاتصال الذى أجراه معها ، تسلل إلى كيانه كله . عبر منابت الشعر ، ومنافذ الجلد ، رغم إنه لم يكن قد تحدث معها بصورة خاصة .

سألها وأجابت . القى عليها الأسئلة المعتادة فى مثل حالتها . إستمع إلى إجاباتها . شاهد كاتب الجلسة وهو يدون الأسئلة والإجابات معًا . ولد من إجاباتها ـ كما يحدث عادة ـ اسئلة جديدة ، وهكذا .

فى ليلته الأولى ، بعد هذه الجلسة ، جافاه النوم . من قبل كانت مشكلته التى تؤرقه أحيانًا ، هى الحكم الذى سينطق به . بصرف النظر عن الإنسان الذى سيصدر عليه الحكم . هذه المرة يعنيه الإنسان نفسه ، الذى تدور حوله القضية . الدم واللحم والأعصاب والمشاعر ، أكثر من أى شىء آخر .

تعب كثيرًا حتى تمكن من اصطياد لحظات نوم ، تخاطيف ، وفى كل مرة ، ما إن يأتيه النوم ، حتى تحضر معه ، يرن صوتها وقطرات الدموع تنز منه .

ـ تعرفنى ؟ ! .

أوشك أن يهز رأسه بنعم ، فكر أن يهزها بلا . لكن دموعه سبقت كلماته ،

لأول مرة فى عمره كله ، وهى جاوبته بشهقه . وعندما وصلت دموعه الدافئة ، إلى شعر ذقنه النابت ، وتاهت بين شعيرات شاربه الخشن ، واستقرت عند شاطئ شفته العليا واكتشف أنها مالحة الطعم .

قال لنفسه ، لابد وأن هناك ، سكرًا وشهدًا مذابين فى قطرات دموعها .

سألته من جديد :

- رأيتى من قبل ؟ ! .

تعجب لأن الحلم يجرى فى البندر الذى يعيش فيه ، تساءل : لماذا اختارت مكانـًا بعيدًا عن المحكمة لكى تحضر له فيه ؟ ! هل يعنى ذلك رفضها لكل ما يجرى فى المحكمة ؟ ! بدا له البندر ، فى الحلم ، مدينة أشباح .

لكن الكروان جاء فى آخر الحلم . نقش صفحة الفجر بصوته الجميل ، وملأ الهدوء بنداءاته ، تلك التى لا يرد عليها أحد . وهكذا جاءه الاكتشاف الأول.

فى هذه المحكمة الكبيرة ، التى تتوسط المدينة المهولة ، أصبح من الصعب عليه ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يبتعد عن محاولة تصيد أحزان الناس .

يسافر القاضى كل صباح ، ينزل من بيته فى السادسة صباحـًا . يرى الهياكل العظمية التى يسميها الناس تجاوزا بالكلاب . يتجنب أن يدوسها . خوفًا عليها من قدميه . وليس خشيه من أن تعضه . حتى كلاب بلدته لم تعد كلابًا .

يتبادل تحية الصباح ، مع صاحب عربة الفول المدمس والبليلة ، الذى يكون قد وصل لتوه ، إلى مكان وقوفه اليومى ، يركن العربة ، ويشعل وابور الجاز . قبل أن يقترب منه القاضى ، يقف منعم بائع الفول « نهارنا فل » ، يقولها كل يوم ، ورغم أن القاضى ، لا يشترى منه الفول ، سوى يوم الجمعة إلا إنه يردف: « يجعل إستفتاحنا نادى » .

أما بائع اللبن . الذى يركن عجلته فى ذلك الوقت إلى الرصيف ، عليها قسط

كبير من نـاحية الشمال ، وقسـط آخر فى نفس الحجم من نـاحية اليمين . وفى يسراه قسط صغير ، وفى يمناه مكيال اللبن . يرفع يده التى تمسك بالمكيال :

ـ صباح اللبن الحليب .

يقولها وهو يحاول الابتعـاد عن القاضى ، يخافه ويخشاه مـن بعيد لبعيد . وإن كان القاضى يتمنى لو عرف السبب فى هذا الخوف وتلك الخشـية .

ثالـث الذين يقـابلهم ، هو الدرويـش ، مجذوب المساكن الشعبيـة ، الذى لا يعرف أحد متى ولا كيف ينام . المجذوب لا يخاف القاضى ولا يخشاه .

هو الوحيد فى البنـدر من الذين يعرفهم القاضى ، الـذى يقول ويكرر إنه لا يخاف ولا يخشى سوى رافـع السماء من غير عمد . لأنه لـن يقبض الأرواح الا من خلقها .

بعد أن يمر القاضى عليه ، يقول والكلمات تتناوب مع التفتفات فى فمه :

ـ احكم بالعدل ياقاضى .

يتوقف ، ثم يصيح بعزم الصوت :

ـ قدامك مظاليم .

يبتسم القاضى فى نفســه ، يوشك أن يتوقف ويقسم لـه ، إنه آن كان فى البر كله مظلوم واحد ، فهو القاضى نفسه .

يصل إلى محطة القطار ، يخرج الابونيه مـن محفظته ، يقول لنفسه : وهكذا تركنا المدينة المنسية . ويبدأ رحلة كل يوم .

يخرج القطار من البندر ، من بحار الالفة الجميلة ، ينظر إلى النعناع المزروع فوق أسطح البيوت . يبدوله الهدوء كغيمة ، تتوه فيه الخطوات المتناثرة ويمتص حتى الاصوات .

لكن الأصـوات تأتيـه من قلـب الروح ، تملـم فتافيـت القلب . يـرى النهر القريب. يخيـل إليه أنه نهر من السكـر ، يشاهد إزرقاق السماء فى هـذا الوقت

متفوقًا على نفســه . يتخيل الماء البارد والبالــغ حد الصفاء الذى يجرى جــريانا سريعًا . يجعل ذاكرته ترتعش .

ينظر حوله ، حقول شديدة الخضرة ، تبـدو وكأنها نزعت من صورة أخذت لجزء من الجنة .

يرى النــاس فى القرى القريبــة من سكة القطار ، الفــلاحون فى هذا الــوقت ينسجون الغيوم من أحــلامهم . ويملأونها من ماء أعينهم . وعنــدما ينزل مطر السماء على الأرض يتحولون إلى أطياف تهوم فى الهواء .

يمر سريعًا على عزب الفلاحين، يواصل رحلته اليومية ورأسه ملئ بالضباب.

جاءته الترقية ومعها الشحططه والبحترة على سكك البلاد . لا توجد محكمة فى البندر الصغير يمكنه العمل فيها . قال إنه يمكنه العمل فى أى مكان . الدرجات على الورق والناس لا تبحث سوى عن قاض عادل يشعر بما يعانون منه .

قالوا له ، وما العمل مــع اللوائح والقوانين ؟. ستنتقل إلى المدينة الكبيرة . كان السكن فيها مستحيلاً . وهكذا لم يعد أمامه ســوى استخراج ابونيه حتى يوفر أجرة السفر اليومية .

يجلس فى الدرجة الأولى ، وعندما لا يكــون فيها مكان خال ، يصيح المحصل فى الجالسين .

ـ السلطة القضائية تقف ، ودا معقول . قوم ياواد إنت وهوه .

كان المحصل يتفاكه قائلاً :

ـ إن سعادة البيه ، له سلطة وضع القطار بمن فيه فى الحبس .

ومع مــرور الوقت ، كــان العسكرى المعين للقطار ، يحجز لــه مكانًا خــاليًا بجوار النافذة ، التى كان ينظر منها قتلاً للوقت .

ولأنه قطار يتحــرك على قضبان توصل بين المدينــة الكبيرة والأرياف . فهو يمشى متعبًا . يتجشأ ويسعل ويكح ويعطش ، ويتم تخزينه كثيرًا على قضبان

فرعية فى المحطات . حتى تمر القطارات السريعة .

كانت تعبر قطاره المتعب السيارات الفارهة ، التى تهجم على الطريق ، يشاهد فيها أحيانًا ، بعض الذين وقفوا فى القفص أمامه . طبق قوانين البلاد عليهم وأودعهم السجون . بعدد سنوات تفوق اعمارهم . ولكن هاهم طلقاء ، يرمحون على السكك ، يسابقون الريح بسيارات لم ير مثلها من قبل فى حياته كلها .

يبدأ فى حساب مدد سجنهم ، يجمع ويطرح ويضرب ويقسم ، يدخل فى اعتباره الفارق بين سنة السجن والسنة العادية ، لا ينسى مناسبات العفو والافراج واعتبارات حسن السير والسلوك ، واحتمالات الافراج فى المناسبات الوطنية والقومية . ولكن عقله يتوه .

يقرر ان يسأل الذى حل مكانه عن مصائرهم ، وكيف خرجوا بهذه السرعة؟ يصرف الخاطر عن باله فورًا . ذلك أن تنفيذ الأحكام لا علاقة للقضاة به . يقول فى نفسه ، « دع الملك للمالك » .

يصل إلى المدينة مبكرًا . فى تلك الساعة المتروكة للشحاذين والمتسولين والباحثين عن الفضلات . تتأكد النهارات فتأتى معها بأناس وبشر ووجوه جديدة .

تصل القطارات ، تتوقف الاتوبيسات فى محطات نهاية الخط ، تطرد زبائن المدينة الجدد من جوفها . ينزلون ، يسعون فى الشوارع ، تتوه الحدود التى تفصل بين الغرباء وأبناء المدينة . أما فى البنادر الصغيرة ، فالحدود واضحة وفاصلة بين الغريب وابن البلد .

المدينة الكبيرة . عواصف يومية من الوجوه ، النساء هشات مذهولات ، كالطيور فى ثيابهن الخفيفة والواسعة والفضفاضة ، وكأنهن محصنات ضد الحرارة . الروائح التى يتركنها وراءهن تتداخل وتتقاطع وتتحارب فى شوارع المدينة .

تصل حاسة الشم لديه إلى أقصى درجة لها . لكن روائح العرق البشرى تأتى فتفسد هذا كله ، وتسد فتحتى أنفه .

مدينة غريبة ، كل من يعيشون فيها يجرون بسرعة أثناء سيرهم ، لا وقت لديهم حتى للحلم ولا لتذوق الكلمات قبل النطق بها .

يأتى القاضى من عالم إلى عالم آخر ، يعبر من دنيا الضوء والحرارة ، حيث يمكنه أن يرسم بالأخضر والأسود والأزرق كل ما يراه . يصل إلى هنا ، حيث يواجه عالمًا من صخب الألوان ، وضجيج خيوطها وبقعها .

مدينة هائلة ، جهاده الأساسى ـ من لحظة وصوله إليها ـ أن يصون عزلته الداخلية .

يقابل ، فى الطريق من المحطة إلى المحكمة ـــ والذى يقطعه على قدميه ـ بعض زملائه . يكتشف أن المسافة بينه وبينهم تتسع ، وأن اللغة التى يحدثونه بها ، تجعله يتوه بعيدًا عنهم ، لا توصله بهم أبدًا .

فى يومه الأول . تسلل إلى مبنى المحكمة ، دون أن يعرفه أحد . دخل كأحد الداخلين من المتقاضين ، والمبنى عبارة عن مجمع محاكم . فى بلدته البعيدة . كانت محكمة وحيدة . الكل كان يعرفه هناك . حتى جدران المحكمة الكالحة . ولحظة دخوله المحكمة ، كانت لها شنه ورنه .

هنا آلاف يدخلون ، مئات يخرجون . وصل بصعوبة إلى الدائرة التى ستكون من نصيبه . قدم نفسه للكاتب ، وجلس . جاء الحاجب وفراش الطرقة، ومعهما شخص ثالث .

حدث الحاجب القاضى وكأنه يوشوشه فى أذنه . قال إن المنادى ، وأشار للشخص الثالث . جاء يسأل عن سيارة سعادة البيه ، القاضى الجديد . لكى يركنها بمعرفته صحيح أن هناك مكان مخصص لانتظار سيارات السادة القضاه ورجال سلك النيابة .

ولكن زحام السيارات فى المنطقة ، يجعل الإنسان يرش الملح فلا ينزل إلى الأرض ، من شدة الزحام . والمنادى يفعل ذلك خدمة للعدالة ولوجه الله ، سبحانه تعالى والبلد .

رفع القاضى رأسه المتعب ، كانت الرؤية قد بدأت تزغلل فى نظراته . مد يده، عدل بها من وضع النظارة على عينيه ، جعلها فى مكانها الطبيعى .

قال وهو يجفف عرقه :

ـ ما عنديش عربية .

حاول الحاجب أن يخفف من دهشته ، انسحب ومعه الرجلان . الساعى والمنادى ، متقهقرين بظهورهم ، سأل القاضى نفسه عن سر هذه الطقوس ولماذا يفعلونها .

سمع كلامهم ، بعد الخروج من أمامه :

ـ قاضى ومن غير عربية .

ـ داجاى مقشط .

ـ تلاقيه على لحم بطنه . ما غيرش ريقه .

ـ الحقه بكباية الشاى لحسن يسورق .

سمع كفًا يضرب بكف :

ـ يبقى الرزق حاينقطع والحكاية حاتنشف .

ـ النوع ده عمره ما يفتح مخه أبدًا .

بدأ له مبنى المحكمة ضائعًا فى دخان المضاربات . نظر من الباب الموارب إلى قاعة المحكمة . كان الحاجب ، الذى انصرف من أمامه منذ قليل ، قد أصبح هناك . يوزع التحذيرات ، والتهديدات والشتائم على من لم يدفعوا بعد ، ويقدم ابتساماته ووعوده الكاذبة بالبراءة لمن يدسون الأوراق المالية فى يده خلسة .

لا يستطيع الحاجب النظر إلى الأموال أو عدها . الاحتياط واجب . ولكن

أنامل الأصابع ، أصابع يديه ، كانت تتحسس الأموال . خيل إلى القاضى أن هذه الأنامل قادرة على معرفة قيمة ، حتى الأوراق المالية .

يسأل القاضى نفسه : كم عمارة عنده الآن ؟ فى أى مكان يركن سيارته أمام المحكمة ؟ يبدوله من جلسته أن هواء القاعة مقيد ، وأن الناس ساهمون فى حالة انتظار . جلس يطل منه حياء الريفى . ثم دخل إلى قاعة المحكمة ، نادى الحاجب بصوته القوى ، الذى كان يوشوش به منذ قليل :

ـ محكمة .

صوت الحاجب يرن فى صمت القاعة . كل الذين يقفون له الآن ، يعيشون فى هذه المدينة الصاخبة ، التى لم يتمكن من السكن فيها . يتصورهم من أولاد المدن ، وهو تصور إفتراضى فى ذهنه .

ما من أحد منهم ولد فى الأصل فى مدينة ، من ليست له قرية جاء منها ، لا يعدله حسب أو نسب أو أصل . مقطوع من شجرة بدون سلسال .

الذين وقفوا لحظة دخوله المحكمة جمهور صاخب ، سيئ الهندام ، تصدر منهم أصوات مكتومة وقهقهات بترت من منتصفها ، وهمهمات تنم عن نفاد صبر .

جلس وأشار للناس حتى تستريح . أطل على القاعة من جلسته . استنشق رائحة الغبار المتصاعد من القاعة إلى أعلى . يحاول أن يرى الغبار فى حركته وسيره . على ضوء أشرطة الشمس المتقاطعة . والتى تتسلل من شقوق السقف وتصدعات الجدران .

المتهمون فى القفص كالموتى من القلق . والشهود يقرضون أظافرهم وقد أمرضهم التهيب . وجمهور ضخم من المتسكعين والمتعطلين الذين يتحركون فى المدينة الضخمة بدون عمل . والذين على المعاش جاءوا إلى المحكمة ، مكان بدلاً من المقهى . على الأقل جلسة ببلاش . لا تمتد فيها الايادى إلى الجيوب . وأن امتدت الأصابع فمن أجل أن تهرش فى عروق الهيافة فى الاقفية المغطاة بشعور

امتدت الأصابع فمن أجل أن تهرش فى عـروق الهيافة فى الاقفية المغطاة بشعور كثيفة لأنهم لا يملكـون أجرة الحلاقـة .يبدأ بـالنظر إلى الأوراق التـى أمامـه ، تلتصق رموش عينيه بالورق ، لا يفصلهما سـوى زجاج النظارة ، تتحركان مع القلم الذى يخط مصائر البشر فى أحرف سريعة .

تنسل عيناه إلى هناك . حيث الناس الذين يجلسون على المقاعد مرهقون من الذباب ، والضوضاء والخوف الذى يجمد النطف فى الظهور والأجنة فى الأرحام .

إستنكر فى نفسه خمود المكـان والعناكب والتراب والألوان التـى تاهت تحت خطوط الـزمان . كـان يتصور أن محكمـة المدينة الكبيرة ، مثـل المحاكـم التى يشاهدها فى الأفلام .

إكتشف فيما بعد أنها عبارة عـن ديكور يتم بناؤه من أجل التصـوير فقط ، ويتـم هدمـه بعد التصـوير مبـاشرة . بحـث بعينيه عـن سماء الله السابعـة ، إصطدمت رموش عيناة بالسقف الواطئ والمراوح المشنوقة فيه . المعطلة منذ أن تم تركيبها .

نظـر ناحيـة القفص ، سمـع كلمات متدفقـة ، تتناوب مـع نهنهات البكـاء وقطرات الدموع . إنها النهنهة التى لا تنتهى أبدًا . ثم تأتى عاصفة الدموع . كما لو ان خراجًا قد انفجر ، أو ان ديدان جرح غائر قد تحركت .

الدمـوع تغسل الأعين وتكسبها جمالاً نادرًا . سمـع مؤخرًا عـن أعين بعض نساء الأكـابر . وأنها قد جفـت . لم تعد قـادرة على أن تفيض بالـدمع . المرض اسمـه : جفـاف العين . مكتوب فى الصحـف أن الـدولـة تستورد لهن دمـوعًا صناعية من باريس .

وإنهن يطالبن حكومة الفقراء أن توفر لهن العملة الصعبة من أجل استيراد هذه الدموع وإلا أصبحت أعينهن مهددةبالجفاف .

مسكينة حكومتنا . أى جفاف ستعالجه ؟ جفاف النيل ؟ أم جفاف القلوب ؟ أم جفاف الضمائر ؟ أم هذا الجفاف الأخير ؟ جفاف اعين نسوان الأكابر ؟

فى القفص متهمات من نوع خاص ، والمتهمة لا تتحدث عن التهمة الموجهة إليها . ولكن كل واحدة تحاول الهروب ، لا مفر أمامهن سوى العودة إلى ذكريات الطفولة البريئة والحكايات القديمة فى حبات القلوب ، فى انتظار أن يستمع لهن أحد .

الكل باطل وقبض الريح ، أكاذيبهن أكثر إنسانية من الأكاذيب المدونة فى الأوراق الرسمية ، الذى تفوح منه رائحة الحبر ، والمكتوبة بخطوط سكرتارية التحقيق وسكرتارية النيابة ، وسكرتارية الجلسات . الذين يمسكون الأقلام بأصابع ملوثة بالأكاذيب .

فى محاكم البنادر التى عمل فيها من قبل ، كان وارد هذا النوع من القضايا قليلاً . يصبح نادرًا فى كثير من الأحيان . ولكن الوارد هنا أضخم من أى وارد رآه من قبل . من كان يتصور ؟

يشيل عينيه من فوق الأوراق . يطوح نظراته ناحية القفص . تصل إلى أنفة الروائح ، كأنهن أحضرن معهن من السجن القيود وبحار الدموع لكى يعمن فيها . وأنهار الأكاذيب حتى يغرقن فى مياهها .

وتأتى واحدة من بنات الليل ، كما لو كانت ثملة . تتباطئ الكلمات فى فمها . تصاب أخرى بالخفقان اثناء الإجابة ، يشعر بالتعب الذى يأتى بعد الغيظ مباشرة . ينظر إلى الجميع . نسوه منكمشات على انفسهن . نوع جديد من القضايا لم يألفه بعد .

فى القفص بعض الرجال ، وإن كانت التهم مختلفة عن تهم النساء . تسهيل دعارة إدارة بيوت للدعارة . تسول النظرات منكسرة ، والكلمات تذوب على الشفاه قبل النطق بها . وخجلهم أضعاف خجل النساء من حولهم .

رجال من نوع خاص هم . رجال يقفون على أرض حريمى ، نواعمى . أرض النساء ، ووسط لعبه جميع ابطالها من النساء . ياه . إن خجل الرجال هنا لا حدود له .

تتداخل الأجساد فى القفص ، يتكلمن لغة مجهولة . تتحرك واحدة داخل القفص . مسكينة . تدوس على الأرض وكأنها تصافحها أو تفكر فى تقبيلها . أجساد مقوسة ، منكمشة على نفسها .

واحدة تتماحك ، وثانية تتضاحك ، وثالثة تتظارف ، ورابعة تتباكى ، وخامسة تتباهى ، ولا يعرف بأى شيء تكون المباهاة . يهمس لأوراقه :

ـ هيه ، دنيا .

رآها لأول مرة فى القفص ، فى لحظة كان قد شبع فيها تمامًا من نهنهات البكاء ، ومن منظر الدموع السائحة على الوجوه . يختلط الأحمر بالأسود بالأزرق بالأخضر ، يتحول الوجه إلى مشروع لبلياتشو فى مولد شعبى من قرية منسية .

القصص المعادة والمكررة . الحكايات التى كان ينخلع لها قلبه فى الماضى البعيد . ويقف لها شعر الرأس ، ويقشعر البدن .

نظر إليها ، ففكر فى يوم محاكمته هو ، وأمام من سيقف ، وهل يحكم القاضى بالعدل ، أم سيحوطه الظلم من يمينه وشماله ؟ شرقه وغربه ؟ فوقه وتحته ؟ قال لنفسه :

ـ إنسانة مختلفة تمامًا .

وضع القلم على الأوراق التى أمامه ، نحى الورق والقلم جانبا . أخرج منديله وجفف به عرقه . وضع النظارة على عينيه حتى يرى جيدًا . لم يكن دورها فى الرول قد أتى . نظر إلى أسماء أصحاب القضايا . توقف أمام اسم محدد ، أقسم فى نفسه أنه لابد وأن يكون اسمها .

عاود النظر إليها ، نطق بحكم فى قضية ذات طابع سياسى ، لا يعرف من الذى رمى بها إلى دائرته . كتاب يسكن تلافيف العقل الجماعى لأمته . مطلوب منه أن يحكم بمصادرته . لأنه أطلت من بين صفحاته فاتنه جاءت من الأحلام .

تحركت خلال أحرف كلماته مخلوقة معجونة من النور والنار والماء والوهج والرغبات المجنونة .

إلى أين يحاول المجانين شد الديار ؟ ! .

إلى أى زمان سحيق ، وإلى أى أمكنة مظلمة يحاولون أخذ الجميع ؟ كان ممثل الادعاء رئيس نيابة الأداب قد انتفخت عروق رقبته ، وهو يطالب بحرق مخلوقته الجميلة . مخلوقة الدهشة والحنين والأسطر والأحرف والكلمات المحلقة فى عوالم الخيال فى ميدان عام .

كانت محكمة أول درجة قد حكمت بالمصادرة . وبعد أن عانق القضية أكثر من ليلة ، وجرى وراء أحرف الكلمات ، وحلق مع الحكايات . وسبح فى بحار الليالى المدهشة . الغى الحكم الأول فى سطر واحد .

شعر براحة لم تتسلل إلى حياته من قبل قط . بعد أن وصل إلى قراره . كأنه هو الذى أبدع هذه الفاتنة الساحرة التى حاولوا احراقها ، فى ميدان عام .

كان الحكم قد أصبح جاهزاً . قال له أحد أعضاء المحكمة :

ـ ستقوم الدنيا .

أكمل العضو الآخر :

ـ ولن تقعد بعد النطق بهذا الحكم .

جفف عرقه ، تذوق من جديد متعه الفن الجميل ، ورأى رحابه العوالم اللانهائية . كتاب ليست له صفحة أولى ، ولا صفحة أخيرة . من المستحيل أن يدعى بشر انه قرأه من الجلدة الأولى وحتى الجلدة الأخيرة .

صفحاته ليست لها أرقام . يسكنه بشر لا يعرف أحدهم الآخر . لو وافق على حرقه ، لأنهى دخان الحريق الحياة البشرية على الكوكب الأرضى كله .

قد يتحول بناسه وحيواناته وطيوره الجميلة وأشياته وأرضه وسمائه وهوائه إلى كتلة من الفحم الأسود من يدريه ؟ ربما امتد الدمار إلى كواكب أخرى.

نظر إلى العضو الذى يجلس على يمينه ، ثم حدق فى العضو الذى يجلس على يساره .

قال :

-إنقاذ برمصر يساوى .

لم يفهما ما قاله الرجل ، تصوروا أن لطفًا أصاب عقله ، كتم كل واحد إحساسه بداخله واخفاه حتى عن نفسه . يعود إلى الجلسة ، يتعامل مع اناس غير قادرين على الكلام ، وإن تكلموا تخرج الكلمات من أفواههم بصعوبة بالغة، يفاجئه الظهر مبكرًا . يجيء قبل الأوان . رغم أنه يتلكأ كثيرًا قبل الحضور عندما يكون فى البيت .

طريق العودة . الوقت هو بعد الظهر ، أنه الزمان الممتد مثل خيوط الصوف لا ينتهى أبدًا . وقت اشبه بجثة ميت . لم تجد من يدفنها . كلما توغل النهار فاحت الرائحة بصورة لا تطاق .

النهر ليس هو نفس النهر ، والطريق لم يعد هو نفس الطريق . وقضبان القطار لم تعد طريقه الوحيد . عائد ولن يستطيع الهروب من لحظته الصامتة معها . عندما استعادت روحها من قطرات الدموع .

الأغصان عارية من الأوراق . تقف عليها العصافير ، يتصوران أن الأغصان والفروع قد ارتدت عصافيرها بدلاً من الأوراق التى تساقطت .

لقاءات الصدفة مع مسافرين مجهولين . نتف من أحاديث تصل إليه . تقطع رتابه رحلة كل يوم . طيوف مسافرين . رحل ، سماء وأعشاب . أرض وأشجار ، طيور وحيوانات وأناس تعجنهم جميعًا سرعة القطار ، فى منظر تتوه تفاصيلة الصغيرة .

يضطر إلى الاصغاء للثرثرة اليومية . يفشل فى الهروب إلى خيالاته وتأملاته. يفكر فى شراء سدادات للاذان . حتى تفصله عن هذا اللغط والصخب والضجيج. يخشى أن يكون سعر هذه السدادات غاليًا يحتاج اثنتين منها فقط .

ويخجل مـن منظره وسط النـاس ، والسدادتـان فى اذنيه . يرد على مـا يسمعه بتهذب ورغبة فى تقفيل الموضوعات .

لحظة الخروج من المحكمة ، حـالة من التكدس فى القاعة . المقـاعد القديمة ، والناس وأوراق القضـايـا . ينظر أمامه . جـدران لا مرئية . يبحث عـن الظلال . يكتشف أنها أصبحت ظلالاً . مجففة .

يخرج من المحكمة قـرب العصر . منهك ومتعب . عرقه مرقـه ، يسمون هذا الوقت مـا بعد القيالة فى البنـدر البعيد الذى يعيش فيـه . ساعة ما بعـد العمل . يقصدون مـا بعد انهاك الجلوس فى مكاتـب الحكومة والقطـاع الخاص والقطاع العام ، وشركات الاستثمار الانفتاحية . بدون أى عمل .

يعود إلى البندر ، بعد أن استطال اليوم ، وامتد عبر حكاوى الناس وهمومهم التى يشيلـونها على اكتافهم ، يتركـة القطار فى صمـت ساعة المغـارب المتلألئ . يكتشف لحظـة نزولـه أن غبار السنـوات نزل على البيـوت والأشجار والـزرع والناس .

رحلة الإياب . نـوبة الرجوع . تبـدو له الطرق والحقول والفضـاء . كل هذا طافح بالغبار . تنام الظلال على أهداب احلام الناس المرتعشة .

يمشى فى الشـوارع إلى بيته . تترنح الجدران . شمس الغـروب تملأ العالم ، وتفرش الكـون . تتسع شقوق الأراضى الشراقـى . يعود الناس مـن موتهم فى الغيطان ، إلى موتهم فى البيوت .

يجمعون الخطـارى المبعثرة فى طـريق التراجـع إلى الخلف بـالظهر المتعـب والمرهق . يلفت نظـرة الشكل الناعس للخلـق . يمشـون وكأنهم يواصلـون نوم القيالة .

الديار غارقة فى بحار الضوء . ضوء الشمس الوهاج . شمس ما قبل الرحيل. ومن يجد مسـاحة من الظل ، كمـن يعثر على شبر فى الجنة . يفتش عـن قروش ظلال الأشجار المرشوشة على أرضية الشوارع .

ينهكه الناس فى البنـدر بأسئلتهم وثرثـراتهم الفارغة التى يتحملهـا بصدر رحب .

يصل إلى البيت . آخر مسـاكن شعبية . بناها عبد النـاصر قبل إستشهاده . يرى بيتـه تحت حرارة الظهر المتمـوجة فيشعر ـ لأول فى يومـه ـ بالطمـأنينة العذبة ، وسط كل هذه المخاوف .

فى البيت ، يعرف مرور النهار البطىء من حركة الشمس . عندما تتسلل إلى غرفة النوم الضيقـة . يكون الضحى قد حل . تفرش قروشها المتنـاثرة البلكونة التى يقف فيهـا بصعوبة بالغة ، يـدرك أنه الظهر ، تنسحب الشمـس من البيت وتولى هاربة ، يقول لنفسه أن الأصيل قد جاء أخيرًا .

الوقت تراب مبلل بالانتظـار ، معلق برموش الأعين . لا يعرف كيف يتصرف فيه . يتأخـر الظهر عن موعـده . والغروب يتلكأ كثيرًا على أبواب البنـدر .والليل يتوعد الفجر الذى يأتى بعده .

يتسـاءل وهو يخطـو نحو عتبـة البيت : هـل يجد فى الكتب المغبرة فى بيتـه الفقير. إجابة على لغز هذا الكائن الفريد الذى اسمه غزلان ؟.

امرأتـان هزتا كيانـه . ذلك المخلوق الخارج من بين أوراق الكتـاب العظيم ، وتلك التى يعرف أنها غـزلان . أحب الأولى عندما أطلت عليه مـن وسط الأحرف وخلال الكلمات .

شـارف على الجنون ، كلـم نفسـه . حاول استخـراجهـا من بين الأحـرف والظلال والنقـط والحروف . كاد أن يمزق الـورق ، جنية أو نداهـة ؟ لا يعرف بالتحديد .

ما أن رأى غـزلان حتى قـال : هذه مـن دم ولحم . ها هـى أمامـه . لعلها أن تشفيه مـن وجع فـاتنة الحكايـات والليالى . التـى كلبشت فى حشـاة وامسكت بحبابى قلبه .

مجروح هو بجنس النسـاء ، منذ أن جلس على مقاعـد الدراسة ، كان موقفه

منهن شديد التعقيد . يحبهن حتى الجنون نفسه . ويخشاهن ويخافهن خوفه وخشيته من الموت .

يتحرق شوقًا إليهن . وما أن يحدث الاقتراب حتى يبدأ على الفور التفكير فى الهروب . قصة معادة . وأن كانت تحدث كثيرًا . وإن لم تجر فى أرض الواقع . فهى تحدث فى خياله ، فى سنوات الصبا والشباب ، تفرغ تمامًا للدراسة . قال لنفسه ، لأحصل على الشهادة أولاً . ثم أفكر بعدها فى التفاريح . لم تكن ظروف العائلة تحتمل أى هزة أو مغامرة . اليوم دراسة وغدًا لهو . سيعيش الحياة بمجرد أن ينتهى من هم الدراسة .

ولكن الذى حدث أن هم وجهاد الدراسة أسلماه إلى سجن الوظيفة والعمل . ليس من حقه أن يلهو وأن يعيش حياته . مثل بقية خلق الله .

كان يحسد الذين يقفون أمامه . كان ينظر إليهم فى بعض الأحيان بإعتبارهم أكثر حرية منه . كالقطار هو كتب عليه أن يمشى على قضبان رسمت له من قبل ، من لحظة البدء وحتى وقت الختام . مثل القطار الذى يستقله مرتين يوميًا .

مسير لا مخير ، فى حين أن كل الناس الآخرين ، يرمحون على السكك ، سكك الله الواسعة ، كالسيارات الطائرة فى الهواء ، تقودها الطرق ، أو تبحث هى عن السكك التى تهواها . دون الارتباط بخط سير معين ، سأل نفسه : ومتى يكون حرًا ؟ بدا له الطريق طويلاً . بعد المعاش . وهل يكتب له العمر إلى ما بعد المعاش؟ وإن طال به الأجل . ماذا سيكون لديه وقتها سوى حكمة الشيوخ وضعفهم وانتظار النهاية التى قد تأتى وربما تأخرت كثيرًا .

جاءته فاتنة الكتاب الخالد . نجا ها بحكمة من الحرق فى ميدان عام . لحظة النجاة كانت هى نفسها لحظة فقدها . لكنه عندما التقى بغزلان وجها لوجه . كان لديه يقين لا يعرف مصدره ، أنها نفس الانثى المدهشة الخارجة من قيعان الكلمات ومن رحم الأسطر .

تمثل عمرة من الألف إلى الياء . قصص النساء اللاتى عبرن حياته : زوجته، أم أولاده وربة بيته . شقيقاته . جاراته ، قريباته . زميلاته فى الجامعة . من احتك بهن فى ظروف العمل .

كم كانت حياته يابسة مثل الأرض الشراقى التى تعانى من الجفاف منذ أن أصبحت أرضا . ها هو قارب النجاة يلوح له . ولكنه يدرك ويعرف أنه القارب المستحيل .

موقفه الموضوعى منها يتمثل فى أحد أمرين لا ثالث لهما . إما أن يبرأها مثل فاتنة الكتاب الخالد . أو أن يدينها . لم يقدر لا على الأمر الأول ، ولم يستطع الاقتراب من الأمر الثانى . كان أميل إلى براءتها ولكن كيف ؟

آه لو تكلمت ؟ لو نطقت ؟ إن البراءة بالنسبة للمتهم إرادة أكثر منها امكانية. وهى لا تريد هذه البراءة . لا تريد أى شىء بالمرة . فماذا يفعل ؟

يتمنى لو أنها ساعدته على أن يقف بجوارها . لودلته على من يقوده إلى لسانها . حتى يجعله ينطق . ولكن صمتها بدا له كالدهر ، لا نهاية به أبدًا .

لابد وأن هناك طريقًا ثالثًا . ولكن أين هو ؟ أين الحل السحرى الثالث . أين؟ أين ؟ وكيف الوصول إليه ؟

جلس إلى مكتبه . كان الوقت صباحًا . فرد الأوراق أمامه ، امسك بالقلم الحبر ، الذى ينتمى إلى زمان مضى ، والذى يتعب كثيرًا قبل العثور على حبر له . فى هذه الأيام .

لن يدون منطوق الحكم . ولن يكون مطلوبًا منه البدء بعد ذلك فى تدوين حيثيات الحكم . والتى يكتبها عادة بالقلم الرصاص .

جلس يكتب طلبًا هو الأول من نوعه فى حياته القضائية كلها . منذ أن جلس على مقاعد الدراسة فى معهد الدراسات القضائية فى وزارة العدل . وطلبوا منه يومها وهو ما يزال شابًا صغيرًا أن يلبس البدلة الكاملة ورابطة العنق . لم يكن لديه واحدة . نزل إلى المحلات واشترى واحدة . ومن يومها وهو لا يستطيع

الذهاب إلى عمله ، أو الظهور فى أى مكان بدونها . قال له استاذه أن القضاء ليس وظيفة ولكنه رسالة يعيشها القاضى اربعة وعشرين ساعة كل يوم . من جميع أيام عمره .

جلس يكتب طلبًا بالتنحى عن نظر قضية غزلان مع قرار احالة القضية إلى دائرة أخرى .

سيسألونه عن الأسباب . هل هناك قرابة قانونية مع أى طرف من أطراف القضية ؟ ماذا سيقول ؟ لديه التعبير الذى كان يقول عنه من قبل أنه تعبير مطاط : لاستشعار الحرج .

ويصاب ضوء النهار بحالة من التكدر . يأتى آخر النهار . كلمتان فقط تكفيان لوصف الأمر كله : الذبول والتلاشى .

هكذا تنتهى القصص

قـاض

وإمرأة

وكـاتب

وضابط

ومحام

ومؤلف.

ومادمنا قد بدأنا بالمؤلف .

فليس أمامنا سوى أن نختم به .

وهذا ما سنفعله فى الآن .

مكسور الجناح فى البدء .

مكسور الجناح فى المنتهى .

قضى يوسف القعيد ، السنوات الأربعين الأولى من عمره فى انتظار الانصاف المستحيل . ولكنه بدلاً من الرسـو على شاطئ الخلاص . وجد نفسه على الضفة الأخرى لليأس .

عاد إلى قـريته يسألها عما جرى لـه . لم حدث ؟ قالت لـه الأرض والأشجار والترع وطين البرك ونقيـق الضفـادع ونهيـق الحمير ونبـاح الكـلاب وصهيـل الخيول وسن المحراث ، وبكاء الساقية ، وتزييق الشادوف . لم تعرف جيدًا لغة العصر التى تقول :

ـ قيراط حظ ولافدان شطارة .

قال له أنين المستضعفين فى قريته :

ـ الناس نوعان . نوع كن فيكون . وآخـر شعاره : إذا لم يكن ما تريد ، فأرد ما يكون .

الخلق نوعان . صنـف يضرب الآخرين . ونوع آخر جاء إلى هـذا العالم لكى يُضرب . مهمتـه ودوره فى هذا الكـون تلقى الضربـات . أنت منـا ـ قـالوا لـه فى قريته ـ نحن المستضعفين ، ولذلك ذهبت إلى هناك لتضرب ، ليس مهما من الذى يضربك . ولكنك المضروب دائمًا . يتغير الذين يضربون ولكنك تضرب .

وحظك السيىء ، سيحـرمك حتى من تعـاطف أعضاء نادى المتفـرجين من المصريين معـك كمضروب . وتصل قلـة البخت إلى مـداها . عنـدما ستطلى مـن الخارج ، بطـلاء يقول لكـل من يـراك ، أنك أنجـح أبناء عصرك . ولـذلك فمـن المفروض أن تكـون أكثرهم سعـادة . شبعت من أيامـك ، وامتلأت من زمـانك فتحمل .

لكنهم قـدموا لك العـزاء قبل العودة إلى المدينة . قـالوا لك أن الأشجـار التى تموت وهى واقفة . أكثر شرفًا من تلك التى تنحنى . فالدخول فى دائرة الانحناء يفقد الإنسان القدرة على الخروج منها .

وهكذا قررأن يجعـل من قهرة وكمدة وحزنـه ، رفاقه حتى الـدخول إلى تلك الفتحة الصغيرة فى باطن الأرض . التى سينزل منها إلى القبر ، فى آخر نزول له ، بعد عمر كله عملية نزول مستمرة .

إن القبر مبنى من الآن فى انتظاره . فى منتصف المسافة بين الضهرية والعتقا. إذا تحدثنا عـن شمال الضهرية وجنـوبها . وفى المسافـة بين بحر النيل وتـرعة ساحل مرقص . أن كانت الحسبة بين الشرق والغرب .

ما كان يحزنه إلى حد الرغبة فى البكاء المستحيل ، إنه أصبح من سكان المدن،

منذ منتصف الستينيات ، وسلم البيت الذى يسكنه ضيق . وسيكون نزول النعش منه صعبا ، إن لم يكن مستحيلاً . فهو يسكن فى آخر مساكن شعبية بناها عبد الناصر العظيم قبل استشهاده فى مدينة نصر .

بيته بدون مصعد ، وحتى أن ركب فيه مصعد مستقبلاً ، فأين هو المصعد الذى يسع النعش الذى يستخدمونه فى قريته ، أو الخشبة التى يحملونها فى المدن .

فى المستشفيات فقط ، مصاعد تسع النعش أو الخشبة ، ولكنه يفزع دائمًا من فكرة المرض الأخير . يحلم كل صباح بذلك الموت المفاجئ الذى يدهم الإنسان وهو يمشى على قدميه .

ومحمد بن يوسف بن يوسف من آل القعيد ، [مع ضمه على القاف وشده وكسره على حرف الياء . وليس القعيد بمعنى الجليس ، كما حاول دكتور كل العصور أن يسخر من إسمه] .

أو يوسف القعيد شخص سيئ الحظ منكود الطالع . شرب دماءه أصدقاء عمره ، وما أندرهم ، ومضغ لحمه وحاول تكسير عظامه وكسر روحه أعداؤه ، وما أكثرهم ، يهيم فى الحياة كالنائم ، وهو يحمل طعنات أبناء جيله وسهام رجال المرحلة الماضية . وتصوب إلى صوره بنادق الأجيال اللاحقة ، التى يحلم أن يكون أبناءها أقل تعاسة منه .

وبمناسبة الحديث عن الأحلام . منذ أن جاء إلى هذا العالم . وهو يحلم كل ليلة ثلاثة أحلام . الأول : أنه مطارد . يحاول أن يجرى فيكتشف أنه بدون قدمين ، ينظر إلى الخلف ، ليس فى غضب ولكن فى هلع . يرى من يطاردونه وهم يكثرون مع استمرار المطاردة .

من المنام الأول يخرج المنام الثانى ، يحاول أن يطير . أن يحلق فى العلالى . يحرك جناحيه فيأتيه الاكتشاف تلو الاكتشاف ، والادراك يعد الآخر ، مكسور الجناح هو ، منذ لحظة البدء ، التى جاء فيها إلى هذا العالم .

ولأنه حلم ، فهو يتمكن من التحليق . على الرغم من أن جناحيه مكسورين . يطير . وبعد التحليق . لابد ، وأن يقع ، يتذكر بعد أن يتناثر جسده ، وتطير الشظايا يا فى الأجواء الرمادية ، الجملة التى كان يحفظها من أيام الكتاب فى قريته .

ـ ماطار طير وارتفع .

إلاكما طار وقع .

المنام الثالث مخجل . يرى نفسه ، فيما يرى النائم . أنه يمشى عاريًا ، مثل لحظة خروجه الأولى من رحم أمه . الكل عليه ملابس ، اشكال وأنواع إلا هو ، لا مطلب لـه سوى ستر عورته ولكن كيف ؟ عورة فى الأمام ، وعورة فى الخلف . يفكر إن له يدان . يد تستر عورة الأمام ، ويد تستر عورة الخلف . يحرك يديه باحثًا عن الستر المستحيل ، فلا يجدهما .

بدون يدان . يذوب من الخجل ويتلاشى من الاحساس بالعار . والكل ينظر إليه . طول عمره وهو يحن إلى دفء الآخرين . ولكنه يقول لنفسه فى لحظة العرى الرهيبة ، الجحيم هو أعين الآخرين .

ما يحزنه بعد الصحو من النوم ، وانتهاء المنام ، كثير ، ولكن أكثر ما يجعل الأسى ينسال فى أعماقه . دافئًا وحنونًا ، إنه يرى الأحلام باللونين ، الأبيض والأسود فقط .

يفكر فى كل مرة ، أن يسأل مفسرى الأحلام ، وعلماء سيكولوجية الأعماق عن السر فى ذلك . ولكنه ، وفى كل مرة ، كان يؤجل السؤال إلى مناسبة أخرى .

ما إن ودع يوسف القعيد ، السنوات الأربعين الأولى من عمره ، حتى بات يسأل نفسه ، قبل أن يغمض عينينه عندما يأتيه النوم : هل تتحقق أحلام النهاية ؟ ! .

يقول لنفسه ، ما من حلم من أحلام البدايات والوسط قد تحقق . فهل يكون

حظ أمنية النهاية أفضل من حظوظ الأمنيات الأولى ؟

يشك فى ذلك ، لأن تحقيـق الأمنيات له ناسـه . يعرفهم منذ لحظـات الميلاد الأولى .

فى النهار خوف ، وفى الليل رعشة ، وفى الأحلام مطاردات لا أول لها ولا آخر. وجهه المتعـب ، يبحث عن القنـديل . مصباح علاء الـدين . الذى تـاه منه وسط فوضى البلاد .

لديـه يقين أنه قد لا يجده أبـدًا . ومع هذا ، ليس أمـامه سوى البحـث عنه . حتى تعود البلاد الوطن الذى كان .

لا مفر من العثور على هذا القنديل . وأن وجده هل يجد الزيت الذى يضيئه ؟ وإن عثر على الزيت أين الكبريت ؟ وإن كان الكبريـت ممكنا أين له اليدين اللتين تحملان المصبـاح وتشعلان الكبريـت ؟ أين هو الضـوء المعلق فـوق الهاوية ؟ والذى أوشك الليل الذى يحاولون جرنا إليه أن يلتهمه وأن يغيبه فى جوفه .

قـــاض : تنحى .

وامـرأة : فى انتظار المجهول .

وكاتب : أين دوخان الشهرة ؟

وضابط : القفزة إلى أعلى متى ؟

ومحام : أين دوخان عد الأموال ؟

ومؤلف : لابد من طوفان . ذلك هو الخلاص الوحيد .

أنا المؤلـف التعيس ، الذى أضـاع كل ممكنـات العمر ، بحثًا عـن المستحيل المستحيل . أقـول لن يصلـح فوضـى البر ، بر مصر ، سـوى معجزة ، بعـد أن سلمنا أرواحنا جميعًا لغول إسمه : العجز .

المحتوى ..

مؤلفات يوسف القعيد

١ ـ الحداد رواية طبعة أولى ١٩٦٩ طبعة ثالثة ١٩٨٧ .

٢ ـ اخبار عزبة المنيسى رواية طبعة أولى ١٩٧١ طبعة ثانية ١٩٨٥ .
ترجمت إلى الروسية والصينية واليابانية .

٣ ـ أيام الجفاف قصة طويلة طبعة أولى : ١٩٧٤ .

٤ ـ البيات الشتوى رواية طبعة أولى : ١٩٧٤ طبعة ثانية ١٩٨٦ .

٥ ـ فى الأسبوع سبعة أيام قصة طويلة . طبعة أولى ١٩٧٥ .

٦ ـ طرح البحر . قصص قصيرة طبعة أولى ١٩٧٦ . طبعة ثانية ١٩٩٠ .

٧ ـ يحدث فى مصر الآن . رواية . طبعة أولى ١٩٧٧ . طبعة رابعة ١٩٨٦ .
ترجمت إلى الروسية . والعبرية .

٨ ـ الحرب فى بر مصر . رواية . طبعة أولى ١٩٧٨ . طبعة خامسة ١٩٩١
ترجمت إلى الروسية والاوكرانية والانجليزية والفرنسية والهولندية والالمانية.

٩ ـ حكايات الزمن الجريح قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٠ . طبعة ثانية ١٩٨٢ .

١٠ ـ تجفيف الدموع . قصص قصيرة طبعة أولى ١٩٨١ طبعة ثانية ١٩٩٠ .

١١ ـ شكاوى المصرى الفصيح . ثلاثية .
الجزء الأول : نوم الاغنياء طبعة أولى ١٩٨١ . طبعة ثالثة ١٩٨٩ .
ـ الجزء الثانى : المزاد طبعة أولى ١٩٨٣ . طبعة ثانية ١٩٨٩ .

ـ الجزء الثالث : ارق الفقراء طبعة أولى ١٩٨٥ طبعة ثانية ١٩٨٩ .

١٢ ـ قصص من بلاد الفقراء . قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٣ .

١٣ ـ من يذكر مصر الاخرى ؟ قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٤ .

١٤ ـ من يخاف كمب ديفيد ، قصة طويلة . طبعة أولى ١٩٨٥ .
ترجمت إلى الروسية .

١٥ ـ الضحك لم يعد ممكنا قصص قصيرة . طبعة أولى ١٩٨٧ .

١٦ ـ القلوب البيضاء رواية . طبعة أولى ١٩٨٧ . طبعة ثانية ١٩٨٩ .

١٧ ـ بلد المحبوب رواية . طبعة أولى ١٩٨٧ .

١٨ ـ وجع البعاد . رواية . طبعة أولى ١٩٨٩ .

١٩ ـ اصوات الصمت حوارات أدبية طبعة أولى ١٩٩١ .

رقم الإيداع : ٤٨٦٠ / ٩٢
I.S.B.N
977 - 09 - 0098 - 2

مطابع الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣